عباس محمود العقاد

عبقرية محمد

دار الهلال

عبقرية محمد

تأليف

عباس محمود العقاد

دار الهلال

مقدمة

تعود بنا هذه المقدمة ثلاثين سنة ، الى اليوم الذى سمعت فيه أول اقتراح بتأليف كتاب عن محمد عليه السلام

وكنت أقيم يومئذ فى ضاحية العباسية البحرية على مقربة من الساحة التى كانت معدة للاحتفال بالمولد النبوى فى كل عام

ولنا رهط من الاصدقاء المشتغلين بالأدب يشتركون فى قراءة كتبه العربية والافرنجية ، ويترددون معا على الأحياء الوطنية ، وقلما يترددون على غيرها . فلا يزالون متنقلين فترة بعد فترة بين الحى الحسينى والحى الزينبى ، أو بين منشية القلعة ، وضاحية العباسية ، أو بين الروضة والخليج .. على حسب المناسبات ، وعلى غير مناسبة فى كثير من الأوقات

وكان رهطا له نقائض الدنيا مجتمعات : نقائض الشباب ، ونقائض الحياة الفنية ، ونقائض الاختلاف فى البيئة بين ناشىء فى العاصمة وناشىء فى الريف وناشىء فى الصعيد وناشىء فى الثغور ، الى غير ذلك من النقائض التى كانت حلية لهذه الجماعة ، ولم تكن فيها من دواعى التفرق والشتات

ومن عجائبها أن الذى كان يغريها بالأحياء الوطنية هو قراءتها فى الكتب الافرنجية التى كانت شائعة بينها ، لأنهم كانوا يقرأون أكثر ما كانوا يقرأون كتب « دكنز » و« هازليت » و« لى هانت » و«كارليل» .. وهم كتاب مولعون بعرض الأخلاق الاجتماعية ودراسة العادات المحلية وتمثيل الريفيين ، والحضريين فى أوضاعهم المختلفة ، ولهم فصول عن الأسواق ، والدكاكين ، والباعة ، تفيض بحسن الملاحظة وبراعة الفكاهة ومتعة القراءة ، وتعود من يدمن قراءتها أن يتحرى نظائرها حيثما رآها

***

ففى يوم من أيام المولد ــ والرهط يزورنى لنؤم الساحة مجتمعين فى

المساء ــ كان الكاتب الانجليزى العظيم توماس كارليل هو محور الحديث كله ، لأنه كما يعلم الكثيرون بين قراء العربيــة صاحب كتاب الأبطال الذى عقـد فيه فصـلا عن النبى محمـد عليه السـلام ، وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل

وانا لنتذاكر آراءه ومواضـع ثنائه على النبى ، اذ بدرت من أحـد الحاضرين الغرباء عن الرهط كلمة نابية غضبنا لها واستنكرناها لما فيها من ســوء الأدب وســوء الذوق وسوء الطوية . وكان الفتى الذى بدرت منه الكلمة متحذلقا يتظاهر بالمعرفة ، ويحسب أن التطـاول على الأنبيـاء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثـة .. فكان مما قاله شىء عن النبى والزواج ، وشىء عن البطولة ، فحواه أن بطولة محمد انما هى بطولة سيف ودماء !

قلت :ــ« ويحك !.. ما سوغ أحد السيف كما ســوغته أنت بهذه القولة النابية ! »

وقال صديقنا المازنى : « بل السيف أكرم من هذا ، وانما سوغ صاحبنا شيئا آخر يستحقه .. وأشار الى قدمه ! »

وارتفعت لهجة النقاش هنيهة ، ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من الندى ، واعتذاره قبـل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول ، أو خيل اليه أنه مقبول

وتساءلنا : ما بالنـا نقنع بتمجيد كارليـل للنبى ، وهو كاتب غربى لا يفهمه كما نفهمه ، ولا يعرف الاسـلام كما نعرفه . ثم سـألنى بعض الاخوان : « ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربيــة كتابا عن محمد على النمط الحديث ؟ »

قلت : « أفعل .. وأرجو أن يتم ذلك فى وقت قريب »

ولكنه لم يتم فى وقت قريب .. بل تم بعد ثلاثين سنة ! وشاءت المصادفة العجيبة أن تتم فصوله فى مثل الأيام التى سمعت فيها الاقتراح لأول مرة .. فكتبت السطر الأخير فيه يوم مولد النبى على حسب الشهور الهجرية ،

واتفقت هـذه المصادفة على غير تدبير منى ولا من أحد ، لأنى لم أدبر لنفسى أوقات الفراغ التى هيأت لى اتمام فصوله وتقسيم العمل فيه يوما بعد يوم

والخيرة فى الواقع ..

والخيرة كذلك فى هذا التأخير ..

فاننى لو كتبته يومئذ لعدت الى كتابته الآن من جديد ، واحتجت الى السنين الثلاثين أضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية والفكرية الى محصول ذلك العمر الباكر .. اذ هو عمر يستطيع المرء أن يمتلىء فيه اعجابا بمحمد ، لأنه عمر الاعجاب والحماسة الروحية . بيـد انه لا يستطيع أن يقيسه بمقياسه وأن يشعر بشعوره فى مثل تجاربه ، وفى مثل السن التى اضطلع فيها بالرسـالة . وان تقارب السن هنا لضرورة لا غنى عنها لتقريب ذلك الشأو البعيد من شتى نواحيه

أين كنا قبل تلك السنين الثلاثين ؟

انها مسافات فى عالم الفكر والروح .. لو تمثلت مكانا منظورا ، لأخـذ المرء رأسه بيديه من الدوار وامتداد النظر بغير قرار

كم رأى ؟.. كم مذهب ؟.. كم وسواس ؟.. كم محنة ؟.. كم مراجعة ؟.. كم زلزال يتضعضع له الكيان وتميد معه الدعائم والأركان ؟.. كم وكم فى ثلاثين سنة مما يطرق نفسا لا تعفيها الحياة من التجارب والعوارض لمحة عين فى نهار ؟.. وكم لذلك كله من أثر فى توطيـد الرأى وتهدئة الثوائر وتجلية الغبار ؟.. وكم يضيف ذلك كله الى الشباب الباكر الذى كان يحلم يومئذ بالعظمـة فى كل أوج ، وبالأوج المحمدى فى عليـا مراتب الأنبياء ؟

الخيرة فى الواقع ..

الخيرة فى ذلك التأخير ..

واليوم ونحن نضع كتابنا هـذا عن « عبقرية محمد » بين يدى القراء ، لا نقول اننا قد استوفيناه كما أردناه ولا اننا فصلنـا فيه الغرض الذى

توخيناه .. ولكننا نقول اننا التزمنا فيه الباعث الذى أوحى الاقتراح بتأليفه لأول مرة . كأننا شرعنا فى كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة ، فكتبناه ونحن نستحضر فى الذهن تبرئة المقام المحمدى من تلك الأقاويل التى يلغط بها الاغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية ، ونظرنا اتفاقا فاذا بأطول الفصول فيه الفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية .. لأنهما كانا مثار اللغط تلك الليلة على مقربة من ساحة المولد ، وكانا مثار اللغط فى كل ما ردده سفهاء الشانئين من الأصلاء والمقتدين فى هذا الباب

فسيرى القارىء أن « عبقرية محمد » عنوان يؤدى معناه فى حدوده المقصودة ولا يتعداها . فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف الى السير العربية والافرنجية التى حفلت بها « المكتبة المحمدية » حتى الآن .. لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها فى هذه الصفحات ، على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار فى هذا الموضوع ، ثم لا يقال انه استنفد كل الاستنفاد

وليس الكتاب شرحا للاسلام أو لبعض أحكامه أو دفاعا عنه أو مجادلة لخصومه .. فهذه أغراض مستوفاة فى مواطن شتى ، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها

انما الكتاب تقدير « لعبقرية محمد » بالمقدار الذى يدين به كل انسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذى يبث له الحب فى قلب كل انسان ، وليس فى قلب كل مسلم وكفى

فمحمد هنا عظيم .. لأنه قدوة المقتدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس ..

عظيم لأنه على خلق عظيم ..

وايتاء العظمة حقها لازم فى كل آونة وبين كل قبيل .. ولكنه فى هذا الزمن وفى عالمنا هذا ألزم منه فى أزمنة أخرى ، لسببين متقاربين لا لسبب واحد : أحدهما أن العالم اليوم أحوج ما كان الى المصلحين النافعين

لشعوبهم وللشعوب كافة .. ولن يتاح لمصلح أن يهدى قومة وهو مغموط الحق ، معرض للجفوة والكنود

والسبب الآخر أن الناس قد اجترأوا على العظمة فى زماننا بقدر حاجتهم الى هدايتها .. فان شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناسا من صغار النفوس بانكار الحقوق الخاصة ، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة .. والمساواة هى شرعة السواد الغالبة فى العصر الحديث

ولقد جار هذا الفهم الخاطىء للمساواة على حقوق العظماء السابقين ، كما جار على حقوق العظماء من الأحياء والمعاصرين . ثم أغرى الناس بالجور بعد الجور غرورهم بطرائف العصر الحديث ، واعتقادهم انه قد أتى بالجديد الناسخ للقديم فى كل شىء .. حتى فى ملكات النفوس والأذهان ، وهى مزية خالدة لا ينسخ فيها الجديد القديم

يرون أن البخار يلغى الشراع ، وربما كان الاختراع السابق أدل على القدرة وأبين عن الفضل من الاختراع الذى تلاه ، ولم يكن ليتلوه لولا ما تقدم عليه

وينظرون الى أقطاب الدنيا كأن الأصل فى النظر اليهم أن يتجنوا عليهم ويثلبوا كرامتهم ، ولا يثوبوا الى الاعتراف لهم بالفضل الا مكرهين ، بعد أن تفرغ عندهم وسائل التجنى والثلب والافتراء

هذه الآفة تهبط بالخلق الانسانى الى الحضيض ..

وتهبط بالرجاء فى اصلاح العيوب الخلقية والنفسية الى ما دون الحضيض ..

فماذا يساوى انسان لا يساوى الانسان العظيم شيئا لديه ؟.. وأى معرفة بحق من الحقوق يناط بها الرجاء اذا كان حق العظمة بين الناس غير معروف ؟.. واذا ضاع العظيم بين أناس ، فكيف لا يضيع بينهم الصغير ؟

لهذا كان تقدير محمد بالقياس الذى يفهمه المعاصرون ويتساوى فى اقراره المسلمون وغير المسلمين ، نافعا فى هذا الزمن الذى التوت فيه

مقاييس التقدير

انه لنافع لمن يقدرون محمدا ، وليس بنافع لمحمد أن يقدروه .. لأنه فى عظمته الخالدة لا يضار بانكار ، ولا ينال منه بغى الجهلاء الا كما نال منه بغى الكفار

وانه لنافع للمسلم أن يقدر محمدا بالشواهد والبينات التى يراها غير المسلم ، فلا يسعه الا أن يقدرها ويجرى على مجراه فيها .. لأن مسلما يقدر محمدا على هذا النحو يحب محمدا مرتين : مرة بحكم دينه الذى لايشاركه فيه غيره ، ومرة بحكم الشمائل الانسانية التى يشترك فيها جميع الناس

وحسبنا من « عبقرية محمد » أن نقيم البرهان على أن محمدا عظيم فى كل ميزان : عظيم فى ميزان الدين ، وعظيم فى ميزان العلم ، وعظيم فى ميزان الشعور ، وعظيم عند من يختلفون فى العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا فى الطبائع الآدمية ، الا أن يرين العنت على الطبائع فتنحرف عن السواء وهى خاسرة بانحرافها ، ولا خسارة على السواء

***

ان عمل محمد لكاف جد الكفاية لتخويله المكان الاسنى من التعظيم والاعجاب والثناء ..

انه نقل قومه من الايمان بالأصنام الى الايمان بالله ، ولم تكن أصناما كأصنام يونان يحسب للمعجب بها ذوق الجمال ان فاته أن يحسب له هدى الضمير . ولكنها أصنام شائهات كتعاويذ السحر التى تفسد الأذواق وتفسد العقول . فنقلهم محمد من عبادة هذه الدمامة الى عبادة الحق الأعلى .. عبادة خالق الكون الذى لا خالق سواه ، ونقل العالم كله من ركود الى حركة ومن فوضى الى نظام ، ومن مهانة حيوانية الى كرامة انسانية ، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات

ان عمله هذا لكاف لتخويله المكان الأسنى بين صفوة الأخيار الخالدين ، فما من أحد يضن على صاحب هذا العمل بالتوقير ثم يجود بالتوقير على اسم انسان

الا اننا نمضى خطوة وراء هذا ، حين نقول أن التعظيم حق « لعبقرية محمد » ولو لم تقترن بعمل محمد ..

لأن العبقرية قيمة فى النفس قبل أن تبرزها الأعمال ويكتب لها التوفيق ، وهى وحدها قيمة يغالى بها التقويم ..

فاذا رجح بمحمد ميزان العبقرية ، وميزان العمل ، وميزان العقيدة .. فهو نبى عظيم وبطل عظيم وانسان عظيم

وحسبنا من كتابنا هذا أن يكون بنانا تومىء الى تلك العظمة فى آفاقها ، فان البنان لأقدر على الاشارة من الباع على الاحاطة ، وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير ..

عباس محمود العقاد

علامات مولد

عالم

كان عالما متداعيا قد شارف النهاية .. خلاصة ما يقال فيه انه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام ..

أى انه فقد أسباب الطمأنينة فى الباطن والظاهر .. طمأنينة الباطن التى تنشأ من الركون الى قوة فى الغيب ، تبسط العدل ، وتحمى الضعف ، وتجزى الظلم ، وتختار الاصلح الاكمل من جميع الامور

وطمأنينة الظاهر التى تنشأ من الركون الى دولة تقضى بالشريعة ، وتفصل بين البغاة والأبرياء ، وتحرس الطريق ، وتخيف العائثين بالفساد

بيزنطة قد خرجت من الدين الى الجدل العقيم الذى أصبح بعد ذلك علما عليها ، وتضاءلت سطوتها فى البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتمى بجوارها

وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس .. وكمنت حول عرشها كوامن الغيلة ، وبواعث الفتن ، ونوازع الشهوات

والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة ، وبين التوحيد الذى هو ضرب من عبادة الأوثان .. ثم هى بعد هذا التشويه فى الدين ، ليست بذات رسالة فى الدنيا ولا بذات طور من أطوار التاريخ .. فليس لها عمل باق فى سجل الأعمال الباقيات

عالم يتطلع الى حال غير حاله .. عالم يتهيأ للتبديل أو للهدم ثم للبناء

أمة

وبين هـذه الدول المتداعيات ، أمة ليست بذات دولة ولكنها تتأهب لاقامة دولة .. هى أمة العرب وقد تيقظت لوجودها وشعرت بمكانتها ، كما شعرت بالخطر عليها وبمواضع النقص منها

فى أيديها تجارة العالمين كلها ..

فاذا سارت القوافل من خليج فارس الى بحر الروم ، فهى تسير فى البادية بين حراس من العرب لا سلطان عليهم للدول المتداعية .. أو هم قد شعروا بذلك السلطان حينا فى ابان الصولة الرومانية والصولة الفارسية ، ثم علموا أنهم مالكون لزمامهم يرضون فتتصل الأرزاق بين المشرق والمغرب وبين المغرب والمشرق ، ويغضبون فتبور التجارة وينضب المورد وتكسد الأسواق

واذا سارت القوافل من اليمن الى الشام أو من بحر القلزم الى بحر الروم ، فهى فى جيرة الأعراب من كلتا الطريقين

أمة تيقظت لوجودها ، وعرفت شأنها بين من يحدقون بصحرائها ..

ثم رأت هؤلاء المحيطين بها يجورون عليها ، ويريدون اخضاعها وابتلاعها ..

فهرقل الرومى يرسل الى مكة من يحكمها ، وأبرهة الحبشى يزحف الى مكة بمن يهدم كعبتها ويستبدل بها كعبة غيرها ، وفارس تطغى على شرق البلاد وعلى جنوبها ..

خطر من خارجها ، يزيد الأمة يقظة وانتباها لوجودها ..

وخطر من داخلها ، يدفع بها دفعا الى الزوال أو الى استكمال النقص المستشرى فى حياتها ..

مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة ، وعصبة واحدة من سادة القوم تجتمع فى أيديها ثروة المدينة ..

حالة لا استقرار فيها ..

فمن هنا الترف ، والطمع ، والخمر ، والقمار ، والمتعة ، وتسخير الأقوياء للضعفاء ..

ومن هنا الفاقة ، والحسرة ، والشك فى صلاح الأمور ..

ولكنه شك يبحث ويضطرب ، وليس بالشك الذى يستجم ويستكين

فحيثما اجتمع أناس من أولى الرأى يذكرون العقيدة وطمأنينة الضمير، فهناك هاتف بينهم بسوء ما هم عليه . اجتمع أناس بنخلة لاحياء عيد العزى فقال رجل منهم لاخوانه : « لله ما قومكم على شىء وانهم لفى ضلال .. فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، ومن فوقه يجرى دم النحور . يا قوم التمسوا لكم دينا غير هذا الدين الذى أنتم عليه » .. ثم تفرقوا ، فمنهم من تنصر ، ومنهم من اعتزل الأوثان ، ومنهم من انتظر حتى سمع دعوة الاسلام فلباها .. وكان الذى تنصر وسمع دعوة الاسلام ورقة بن نوفل الذى كتب له أن يتلقى بشارة النبى العربى عند ظهوره ويلقى اليه بالبشارة

هؤلاء شكوا وبحثوا عن العقيدة وطمأنينة الضمير ..

وغيرهم شكوا وبحثوا عن وازع من الضمير ، ووازع من السلطان . فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم يتعاهدون باسم الله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه . وذلك حلف الفضول الذى شهده النبى العربى فى شبابه وقال فيه : « ما أحب أن يكون لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم »

حالة لا تستقر ، ولا تزال فى طلب الاستقرار ..

وأمة يقظى !..

وخطر محدق بها مما حولها ، ومما هو فى دخائلها وأحشائها ..

حالة تنذر بالزوال ، وقلما تزول أمة يقظى فى أوان انتباهها .. فتلك اذن حالة للتبديل والتجديد

قبيلة

وقبيلة فى تلك الأمة ، فى تلك المدينة .. لها شعبتان :

احداهما من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو قائم كما كان قائما على هواها

والاخرى من أصحاب التقوى والسماحة والتوسط بين مقام القوى الذى يجور ويطغى ويستبقى أداة الجور والطغيان ، ومقام الضعيف الذى يحتمل الأذى ويصبر على الكريهة ولا يملك مع السيد الآمر الا أن يذعن له ويأكل من فضلات يديه

بيت

وبيت من تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق وليس له لؤم الثروة الجامحة والكبرياء الجائحة ، والقسوة على من دونه من المحرومين

ذلك هو بيت عبد المطلب من صميم قريش ومن ذؤابتها العليا ، وان لم يكن معدودا من أثرياء القبيلة القرشية فى ذلك الأوان ..

ورأس هـذا البيت ـ عبد المطلب ـ رجل قوى الخلق قوى الايمان فيما آمن به ، حكيم مع قوة طبعه وشـدة ايمانه ، خليق أن ينجب العقب الذى يبشر بدعوة وينضح عن دين

نذر لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة .. ثم أحله قومه وأحلته العرافة من نذره ، فأبى أن يتحلل حتى يستوثق من رضى الرب ورضى ضميره . سألتهم العرافة : « كم الدية فيكم ؟ »

قالوا : « عشر من الابل »

قالت : « فتقـربوا اذن بعشر من الابل واضربوا على الفتى وعليهـا بالقداح .. فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم» فما زالوا يزيدون حتى بلغت الابل مائة وخرجت القداح عليها . فهتفت قريش بعبد المطلب : « لقد رضى ربك .. فأطلق فتاك » . وكان خليقا بمن

يريد أن يتحلل ويتعلل أن يقبل ولا حرج عليه ، ولكن عبد المطلب لم يكن من المتحللين المتعللين ، فأبى الا أن يضرب عليها القداح ثلاث مرات ، ثم نحرت الابل للجياع من الأناسى والسباع

وجاء القائد الحبشى يهدم الكعبة ويسطو على الابل والشاء .. فلما سأله عبد المطلب أن يرد اليه ابله ، قال له مقال السياسى المحرج المداور بالكلام : « أراك تسأل عن ابلك ولا تسأل عن الكعبة »

فأجابه عبد المطلب جواب الحكيم المؤمن : « أما الابل فأنا ربها ، وأما البيت فله رب يحميه ! »

فكان ايمانه ايمانا كفؤا لدهاء السياسة ، ولم يكن ايمان العجز والتواكل والاستسلام ..

ومن كان له هذا الخلق ، وهذا الضمير ، وهذا الايمان ، وهذه الرئاسة ، فليس من عجب أن ينجب نبيا فى زمان يستدعى الانبياء ، ومكان مهيىء لهم دون كل مكان .. بل العجب أن يكون الأمر غير ما كان

أب

واذا كان عبد المطلب جدا صالحا لنبى كريم ، فابنه عبد الله نعم الأب لذلك النبى الكريم ..

لكأنما كان بضعة من عالم الغيب ، أرسلت الى هذه الدنيا لتعقب فيها نبيا وهى لا تراه .. ثم تعود

كان انسانا من طينة الشهداء ، يتجه اليه القلب الانسانى بكل ما فيه من حب وحنو ورحمة . فهو الفتى الذى اسمه عبد الله والذى اختير للفداء ، فجاشت له شفقة قومه حتى تركه لهم القدر الى حين . وهو الفتى الذى تحدثت الفتيات فى الخدور بوسامته وحيائه ، وودت مئات منهن لو نعمن منه بنعمة الزواج . وهو الفتى الذى أقام مع عروسه ثلاثة أيام ، ثم سافر ليتجر فاذا هى السفرة التى لا يؤوب منها الذاهبون . وهو الفتى الذى مات وهو غريب ، وولد له نسله الكريم وهو دفين . وهكذا تتمثل

البصائر الخاشعة آباء الأنبياء والسلالة التى تصل بين الآخرة والدنيا وبين عالم البقاء وعالم الفناء

رجل

عالم يتطلع الى نبى .. وأمة تتطلع الى نبى ، ومدينة تتطلع الى نبى ، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لانجاب ذلك النبى

ثم ها هو ذا رجل لا يشركه رجل آخر فى صفاته ومقدماته ، ولا يدانيه رجل آخر فى مناقبه الفضلى التى هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة فى المدينة .. وفى الجزيرة ، وفى العالم بأسره

نبيل عريق النسب .. وليس بالوضيع الخامل ، فيصغر قدره فى أمة الأنساب والأحساب ..

فقير .. وليس بالغنى المترف فيطغيه بأس النبلاء الأغنياء ، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليسار

يتيم بين رحماء .. فليس هو بالمدلل الذى يقتل فيه التدليل ملكة الجد والارادة والاستقلال ، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذى تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح ، وفضيلة العطف على الآخرين

خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش فى البادية والحاضرة .. تربى فى الصحراء وألف المدينة ، ورعى القطعان واشتغل بالتجارة وشهد الحروب والاحلاف ، واقترب من السراة ولم يبتعد من الفقراء ..

فهو خلاصة الكفاية العربية فى خير ما تكون عليه الكفاية العربية ..

وهو على صلة بالدنيا التى أحاطت بقومه .. فلا هو يجهلها فيغفل عنها ، ولا هو يغامسها كل المغامسة فيغرق فى لجتها

أصلح رجل من أصلح بيت فى أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة ، على غير علم من الدنيا التى ترقبها

ذلك محمد بن عبد الله عليه السلام ..

قد ظهر والمدينة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة اليه ، والجزيرة مهيأة

لظهوره لأنها محتاجة اليه ، والدنيا مهيأة لظهوره لأنها محتاجة اليه ، وماذا من علامات الرسالة أصدق من هذه العلامة ؟.. وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير ؟.. وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق ؟.. علامات الرسالة الصادقة هى عقيدة تحتاج اليها الأمة ، وهى أسباب تتمهد لظهورها ، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أوانها ..

فاذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا الى علامة غيرها ؟.. واذا تعذر عليها أن تجتمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟

خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولا مبشرا بدين ، والا فلأى شىء خلق ؟ .. ولأى عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ، وكل هاتيك المناقب والصفات ؟

لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن ، لكان تاجرا أمينا ناجحا موثوقا به فى سوق التجار والشراة .. ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته ، ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة اليها فى هذا العمل مهما يتسع له المجال

ولو اشتغل زعيما بين قومه لصلح للزعامة ، ولكن الزعامة لا تستوفى كل ما فيه من قدرة واستعداد ..

فالذى أعده له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية لا سواها ، وما من أحد قد أعد فى هذه الدنيا لرسالة دينية ان لم يكن محمد قد أعد لها أكمل اعداد

بشائر الرسالة

والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد فى استقصاء بشائر الرسالة المحمدية .. يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكدوه وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه ، وما أيدته الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته ، ويتفرقون فى الرأى والهوى بين تفسير الايمان

وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة ، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة فى آثار تلك البشائر التى سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الاسلام ؟

لا موضع هنا لاختلاف ..

فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر فى اقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبى بالرسالة ، أو كان ثبوت الاسلام متوقفا عليها

لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد ، لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها ، ولا عرفوا أنها علامة على شيء أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة

ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا الى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة ، لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا الى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا اليه

وقد ولد مع النبى عليه السلام أطفال كثيرون فى مشارق الأرض ومغاربها ، فاذا جاز للمصدق أن ينسبها الى مولده جاز للمكابر أن ينسبها الى مولد غيره . ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين الا بعد عشرات السنين .. يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وانكار المنكرين

أما العلاقة التى لا التباس فيها ولا سبيل الى انكارها ، فهى علامة الكون وعلامة التاريخ ..

قالت حوادث الكون : لقد كانت الدنيا فى حاجة الى رسالة ..

وقالت حقائق التاريخ : لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة ..

ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ

عبقريّة الدّاعى

اتفقت أحوال العالم اذن على انتظار رسالة ..

واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة ..

وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد ، ولا تتفق معها الوسائل التى تؤدى بها رسالته على أحسن الوجوه

كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول ، ثم لا يظهر الرسول

وكان من الممكن أن يظهر الرسول فى البيت الصالح وفى البيئة الصالحة ، ثم لا تتهيأ له الصفات التى يتم بها أداء الرسالة

ولكن الذى اتفق فى رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق ، وكان المعجزة التى تفوق المعجزات .. لأنها مع ضخامتها وتعدد أجزائها وتوافق تلك الأجزاء جميعها ، مما يقبله العقل قبولا سائغا بغير عنت ولا استكراه

فكان محمد مستكملا للصفات التى لا غنى عنها فى انجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ

كانت له فصاحة اللسان واللغة ..

وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة ..

وكانت له قوة الايمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها ..

وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول .. ولكنها هى التى عليها المدار فى تبليغ الرسالة ، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال

الفصاحة

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ، ولموضوع

الكلام .. فيكون الكلام فصيحا وهيئة النطق به غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية فى الأسماع والقلوب

أما فصاحة محمد .. فقد تكاملت له فى كلامه ، وفى هيئة نطقه بكلامه ، وفى موضوع كلامه

فكان أعرب العرب ، كما قال عليه السلام : « أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر »

فله من اللسان العربى أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة .. وهذه هى فصاحة الكلام

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا فى بنى سعد ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم ، أو يكون صوته غير محبوب ، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس .. فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل

أما محمد فقد كان جمال فصاحته فى نطقه كجمال فصاحته فى كلامه ، وخير من وصفه بذلك عائشة رضى الله عنها حيث قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس اليه »

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها ، وقدرته على ايقاعها فى أحسن مواقعها .. فهو صاحب كلام سليم فى منطق سليم

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا فى بنى سعد ، ويكون سليما فى كلامه سليما فى نطقه .. ثم لا يقول شيئا يستحق أن يستمع اليه السامع فى موضوعه

فهذا أيضا قد تنزه عنه الرسول فى فصاحته السائغة من شتى نواحيها .. فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات الا وهو دليل صادق على أنه قد أوتى حقا « جوامع الكلم » ، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام

وكانت له مع الفصاحة صباحة ودماثة تحببانه الى كل من رآه ، وتجمعان اليه قلوب من عاشروه . وهى صفة لم يختلف فيها صديق ولا عدو ، ولم ينقل عن أحد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفة مثل ما بلغه محمد بين الضعفاء والأقوياء على السواء

وحسبك من حب الضعفاء اياه أن فتى مستعبدا يفقد أباه وأسرته — كزيد بن حارثة ثم يظهر له أبوه بعد طول الغيبة فيؤثر البقاء مع محمد على الذهاب مع أبيه ..

وأن خادم خديجة رضى الله عنها — ونعنى به ميسرة — يقدمه ليبشر سيدته بالربح والتوفيق فى تجارته ، وهو أولى أن ينفس عليه ، وأن يدعى لنفسه ما اختصه به من الفضل والتقديم

وحسبك من حب الأقوياء اياه أنه جمع على محبته اناسا بينهم من التفاوت فى المزاج والخصال ما بين أبى بكر وعمر وعثمان وخالد وأبى عبيدة ، وهم جميعا من عظماء الرجال

ولكن الرجل قد يكون صبيحا دمثا محبوبا ، ولا يكون له من ثقة الناس وائتمانهم اياه نصيب كبير .. لأن الرجل المحبوب غير الرجل الموثوق به ، واذا اتفقت الخصلتان حينا فمن الجائز أن تفترقا حينا آخر ، لأنهما فى عنصر الخصال لا تتلازمان

أما محمد فقد كان جامعا للمحبة والثقة كأفضل ما تجتمعان ، وكان مشهورا بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه . وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه . وامتلأ هو من العلم بمنزلته من ثقة القوم ، فأحب أن يستعين بها على هدايتهم وترغيبهم فى دعوته فكان يسألهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى ؟ »

فيقولون : « نعم ، أنت عندنا غير متهم » .. الا ان الانسان ينفر مما يصدمه فى مألوفاته وموروثاته ، ولو صدقه وقام لديه ألف برهان عليه .

فلم يكن ما بالقوم أنهم لا يصدقون محمدا ولا يعلمون فيه الشرف والأمانة ، وانما كان بهم أنهم ينفرون من التصديق كما ينفر المرء من خبر صادق يسوءه فيمن يحب أو فيما يحب ، وهو مفتوح العينين ناظر الى صدق ما يلقى اليه

الايمان والغيرة

ومن المحقق أن هذه الموافقات على كثرتها ، وهذه الشمائل على ندرتها ، لا تزال تتوقف على صفة أخرى يحتاج اليها الداعى أشد من احتياجه الى الفصاحة والصباحة .. وهى ايمانه بدعوته وغيرته على نجاحها . فقد نجح داعون كثيرون تعوزهم طلاقة اللسان وطلاقة القسمات ، ولم ينجح قط داع كبير يعوزه الايمان بصواب ما يدعو اليه ، والغيرة عليه

وقد قضى محمد عليه السلام شبابه وهو يؤمن بفساد الزمان وضلال الأوثان .. وجاوره أناس أقل منه نبلا فى النفس ولطفا فى الحس ونفورا من الرجس ، آمنوا بمثل ما آمن به من فساد عصره وضلال أهله ، ومن حاجتهم الى عبادة غير عبادة الأصنام ، وآداب غير آدابهم فى تلك الأيام . فاذا جاوزهم فى صدق وعيه وسداد سعيه فقد وافق المعهود فيه ، والموروث من جده وأبيه

ولما آمن برسالته هو ودعوة ربه اياه الى القيام بأداء تلك الرسالة لم يهجم على هذا الايمان هجوم ساعة ولا هجوم يوم ، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره ، ولكنه تردد حتى استوثق ، وجزع حتى اطمأن . وخطر له فى فترة من الوحى أن الله قلاه وأعرض عنه ، ولم يأذن له فى دعوة الناس الى دينه . ثم تلقى الطمأنينة من وحى ربه ومن وحى قلبه ومن وحى صحبه .. فصدع بما أمر ، ورضى ضميره بما أوتى من الهداية على النحو الذى رضيت به ضمائر الأنبياء وأصحاب الفطرة الدينية ، مع ما بينه وبينهم من فارق فى الرتبة والأهبة ، وما بين زمانهم وزمانه من فارق فى الحاجة الى الاصلاح

فما من عجب اذن أن يكون محمد صاحب دعوة ..

وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت ، وأن تبلغ من وجهتها الغاية التى بلغت . وانما العجب ممن يغفلون عن هـذه الحقيقـة أو يتغافلون عنها لهوى فى الأفئـدة ، فيشبهون اليوم أولئك الجاهلين الذين أصروا أمس على الكفر به وحجبوا بأيديهم نوره عامدين

نجاح الدعوة

ما من حركة كبرى فى التاريخ تتضح للفهم ان لم يكن نجاح الدعوة المحمدية مفهوما بأسبابه الواضحة المستقيمة التى لا عوج فى تأويلها ، وما من شىء غير الغرض الأعوج يذهل صاحبه عن هـذه الأسباب الطبيعية البينة ثم يخيل اليه أن الدعوة الاسلامية كانت فضولا غير مطلوب فى هذه الدنيا ، وان نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيـد والوعود أو غير الارهاب بالسيف والاغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين

أى ارهاب وأى سيف ؟..

ان الرجل حين يقاتل من حوله انما يقاتلهم بالمئات والألوف .. وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا فى الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحدا لسيوفهم ، وكانوا يلقون عنتـا ولا يصيبون أحـدا بعنت ، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذا بأنفسـهم وأبنـائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين ولا يخرجون أحدا من داره

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفا من النبى الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه ، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين .. ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الارهاب والوعيد ، ولم يحملوه ليبدأوا واحدا بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم ، ولم تكن كلها الا حروب دفاع وامتناع

أما الاغراء بلذات النعيم ومتعـة الخمر والحور العين .. فلو كان هو

باعثا للايمان ، لكان أحرى الناس أن يستجيب الى الدعوة المحمدية هم فسقة المشركين وفجرتهم وأصحاب الترف والثروة فيهم ، ولكان طغاة قريش هم أسبق الناس الى استدامة الحياة واستبقاء النعمة . فان حياة النعيم بعد الموت محببة الى المنعمين تحبيبها الى المحرومين ، بل لعلها أشهى الى الأولين وأدنى.. ولعلهم أحرص عليها وأحنى ، لأن الحرمان بعد التذوق والاستمراء أصعب من حرمان من لم يذق ولم يتغير عليه حال

***

لم يكن أبو لهب أزهد فى اللذة من عمر ..

ولم يكن السابقون الى محمد أرغب فى النعيم من المتخلفين عنه ..

ولكننا ننظر الى السابقين وننظر الى المتخلفين ، فنرى فارقا واحدا بينهم أظهر من كل فارق . ذلك هو الفارق بين الأخيار والأشرار ، وبين الرحماء المنصفين والظلمة المتصلفين وبين من يعقلون ويصغون الى القول الحق ، ومن يستكبرون ولا يصغون الى قول

ذلك هو الفارق الواضح بين من سبقوا ومن تخلفوا .. وليس هو الفارق بين طالب لذة وزاهد فيها ، أو بين مخدوع فى النعيم وغير مخدوع

ولعلنا لا نستبين هذه الحقيقة من مثال واحد كما نستبينها من مثال عمر رضى الله عنه فى اسلامه .. فقصته فى ذلك نموذج لتلبية الدعوة المحمدية ، ينفى كل كلام يقال عن الوعيد والاغراء وأثرهما فى اقناع الأقوياء أو الضعفاء

قال ابن اسحق : « ... خرج عمر يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه ... قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء . ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم .. ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولم يخرج فيمن خرج الى أرض الحبشة . فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : « من تريد يا عمر ؟.. »

فقال : « أريد محمدا هـذا الصابىء الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله »

فقال نعيم : « والله لقد غرتك نفسك يا عمر !.. أترى بنى عبد منـاف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟.. أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ »

قال : « وأى أهل بيتى ؟ »

قال : « ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ! وأختك فاطمة بنت الخطاب .. فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما »

قال : « فرجع عمر عامدا الى أخته وختنه ، وعندهما خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخـذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : « ما هذه الهينمة التى سمعت ؟ »

قالا له : « ما سمعت شيئا !.. »

قال : « بلى والله !.. لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه » .. وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته : « نعم .. قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك » . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته : « أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد » . وكان عمر كاتبا ، فلما قال ذلك قالت له أخته : « اذا نخشاك عليها »

قال : « لا تخافى » وحلف لها بآلهته ليردنها اذا قرأها اليها . فلما قال ذلك طمعت فى اسلامه ، فقالت له : « يا أخى !.. انك نجس على شركك ، وانه لا يمسها الا الطاهر » . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « سورة طه » . فقرأها فلما قرأ منها صدرا قال : « ما أحسن هـذا الكلام وأكرمه ! » فلما سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له : « يا عمر ! والله انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته وهو

يقول : « اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب .. فالله الله يا عمر ! »

فقال له عند ذلك عمر : « فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم »

فقال له خباب : « هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه » . فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا السيف ، فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : « يا رسول الله !.. هذا عمر بن الخطاب متوشحا بالسيف »

فقال حمزة بن عبد المطلب : « تأذن له .. فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه »

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ائذن له ! » فأذن له الرجل ونهض اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذة شديدة وقال : « ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ! »

فقال عمر : « يا رسول الله !.. جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله »

قال : « فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم » فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع اسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله وينتصفون بهما من عدوهم ... »

هذه قصة اسلام عمر بن الخطاب ، وهذا موضع ما فيها من الوعيد والاغراء .. خرج بالسيف ليقتل محمدا ولم يخرج عليه أحد من المسلمين بسيف ، وقرأ صدرا من سورة طه ليس فيه ذكر للخمر والنعيم وهو : « طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . الا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما فى

السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى . وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى »

فلا جبن اذا ولا طمع فى اسلام عمر بن الخطاب ، بل رحمة وانابة واعتذار

ولم يكن فى اسلام الفقراء الذين هم أقل من عمر ناصرا وأضعف منه بأسا جبن ولا طمع ، لأنهم تعرضوا باسلامهم للسيف ولم يخضعوا للسيف حين أسلموا لله ورسوله ، وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال ان الذين سبقوهم الى الاسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة وجبن عن مواجهة القوة .. ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور ، فمن كان أقرب الى هذه الطلبة من غنى أو فقير ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم ، ومن كان به زيغ عنها فقد أبى .. وهذا هو الفيصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للاسلام سيف يذود عنه ، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف . وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان فى جانب اللذة والخوف ، ويضع الطغاة من قريش فى جانب العصمة والشجاعة الا أن يكون به هوى كهوى الكفار من قريش ، فى الاصرار والانكار

انما نجحت دعوة الاسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته ..

فلا حاجة بها الى خارقة ينكرها العقل أو الى علة عوجاء يلتوى بها ذوو الأهواء ، فهى أوضح شىء فهما لمن أحب أن يفهم ، وهى أقوم شىء سبيلا لمن استقام

عبقرية محمد العسكرية

حروب دفاع

قلنا فى الفصل السابق أن الاسلام لم ينجح لأنه دين قتال كما يردد أعداؤه المغرضون ، ولكنه نجح لأنه دعوة لازمة يقوم بها داع موفق ، وليس بين أسباب نجاحه سبب واحد يصعب فهمه على هذا الاعتبار

ونريد فى هذا الفصل أن نقول أن محمدا كان على اجتنابه العدوان يحسن من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه ، وانه لم يجتنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده .. ولكنه اجتنبه لأنه نظر الى الحرب نظرته الى ضرورة بغيضة يلجأ اليها ولا حيلة له فى اجتنابها ، ويجتنبها حيثما تيسرت له الحيلة الناجحة

وقبل ذلك ينبغى أن نستحضر فى الذهن بعض الحقائق التى تظهر لنا الاختلاف بين الدين الاسلامى والأديان الأخرى فى مسألة القتال ، لنثبت أن للاسلام شأنا فى اجتناب القوة كشأن كل دين ، وانه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن الى جانب ذلك صالحا للانتصار ، وأن الأديان الأخرى ما كانت لتحجم عن عمل أقدم عليه النبى لو كانت دعوتها كدعوته ، وكانت أسبابها كأسبابه

***

فالحقيقة الأولى ، أن مطعن القائلين بأن الاسلام دين قتال انما يصدق — لو صدق — فى بداءة عهد الاسلام كما أسلفنا ، يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين ، ولولا هم لما كان له جند ولا حمل فى سبيله سلاح

لكن الواقع أن الاسلام فى بداءة عهده كان هو المعتدى عليه ولم يكن من قبله اعتداء على أحد .. وظل كذلك حتى بعد تلبيـة الدعوة المحمدية اجتماع القول حول النبى عليه السلام ، فانهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك : « وقاتلوا فى سـبيل الله الذين تقـاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »

وقد صـبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة ، فلم يكن لهم قط عدوان ولا اكراه

وحروب النبى عليه السلام كما أسلفنا كانت كلها حروب دفاع . ولم تكن منها حرب هجوم الا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الايقان من نكث العهد والاصرار على القتال ، وتستوى فى ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم .. ففى غزوة تبوك عاد الجيش الاسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة ، وكان قد سرى الى النبى نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية . فلما عدلوا عدل الجيش الاسـلامى عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهـد والنفقة فى تجهيزه وسفره

والحقيقة الثانية ، أن الاسلام انما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والاقناع

ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف « سـلطة » تقف فى طريقه ، وتحول بينه وبين اسماع المستعدين للاصغاء اليه

لأن السلطة تزال بالسلطة ، ولا غنى فى اخضاعها عن القوة ..

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الاسلامية ، وانما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء ، وفى الأعقاب بعد الأسلاف .. وكل حجتهم التى يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها ، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه

وقصد النبى بالدعوة عظمـاء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب

السلطة التى تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هى التى كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء ، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التى تصد الدعوة الاسلامية ، فيمتنع القتال

ومن التجارب التى دل عليها التاريخ الحديث كما دل عليها التاريخ القديم أن السلطة لا غنى عنها لانجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب .. ومن تلك التجارب تجربة فرنسا فى القرن الماضى ، وتجربة روسيا فى القرن الحاضر ، وتجربة مصطفى كمال فى تركيا ، وتجارب سائر الدعاة من أمثاله فى سائر البلاد

فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة .. ولا بد من التمييز بين العملين ، لأنهما جد مختلفين

***

والحقيقة الثالثة أن الاسلام لم يحتكم الى السيف قط الا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الانسان على تحكيم السيف فيها

فالدولة التى يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ، ماذا تصنع ان لم نحتكم الى السلاح ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين »

والدولة التى يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها ، بماذا تفض الخلاف بينهم ان لم تفضه بقوة السلطان ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضا حيث جاء فيه : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله . فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين »

وفى كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل ، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح .. ثم يأتى الصلح والتوفيق أو يأتى

التفاهم بالرضى والاختيار

***

والحقيقة الرابعة ، أن الأديان الكتابية بينها فروق موضعية لابد من ملاحظتها عند البحث فى هذا الموضوع ..

فاليهودية أو الاسرائيلية كانت كما يدل عليها اسمها أشبه بالعصبية المحصورة فى أبناء اسرائيل منها بالدعوة العامة لجميع الناس .. فكان أبناؤهم يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها كما يكره أصحاب النسب الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه ، وكانوا من أجل هذا لا يحركون ألسنتهم - فضلا عن امتشاق الحسام - لتعميم الدين اليهودى وادخال الأمم الأجنبية فيه ، ولا وجه اذن للمقارنة بين اليهودية والاسلام فى هذا الاعتبار

أما المسيحية فهى قد عنيت « أولا » بالآداب والأخلاق ، ولم تعن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة

وقد ظهرت « ثانيا » فى بلاد للمعاملات والنظم الحكومية فيها قوانين تحميها كما يحميها الكهان المعززون بالسلطان ، فهى قد عدلت عن فرض المعاملات والدساتير لهذه الضرورة ، لا لأن المعاملات والدساتير ليست من شأن الدين

وقد ظهرت « ثالثا » فى وطن تحكمه دولة أجنبية ذات حول وطول ، وليس للوطن الذى ظهرت فيه طاقة بمصادمة تلك الدولة فى ميدان القتال

أما الاسلام فقد ظهر فى وطن لا سيطرة للأجنبى عليه ، وكان ظهوره لاصلاح المعيشة وتقويم المعاملات وتقرير الأمن والنظام .. والا فلا معنى لظهوره بين العرب ثم فيما وراء الحدود العربية

فاذا اختلفت نشأته ونشأة المسيحية ، فذلك اختلاف موضعى طبيعى لا مناص منه ولا اختيار لأحد من الخلق فيه

وآية ذلك أن المسيحية صنعت صنع الاسلام حين قامت بين أهلها الدول والجيوش ، وحين استقلت شعوبها عن الأجانب المتغلبين .. وأربت حروب

المذاهب فيما بين أبنائها على حروب صدر الاسلام مجتمعات

***

والحقيقة الخامسة ، أن الاسلام شرع الجهاد ، وأن النبى عليه السلام قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله »

وجاء فى القرآن الكريم : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا »

وحدث فعلا أن المسلمين فتحوا بلادا غير بلاد العرب ، ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح

الا أن هذه الفتوح تأخرت فى الزمن ولم يتم شىء منها قبل استقرار الدولة للاسلام ، فلا يمكن أن يقال أنها كانت وسيلة الاسلام للظهور ، وقد ظهر الاسلام قبلها وتمكن فى أرضه واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت فى سبيله ..

ثم ان هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة ان لم تفرضها الدعوة الى دينها

فلو قدرنا أن الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو اليه ، لوجب فى ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التى شاعت فى أرض فارس وفى أرض الروم .. ووجب أن يكف الشر الذى يوشك أن ينقض عليه من كلتيهما ، وأن يمنع عدوى الفساد أن تسرى منهما الى حماه ..

هذا الى أن الاسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة ، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب

***

والحقيقة السادسة ، أن المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل اسلامها وبعد اسلامها تدل على أن جانب الاسلام هو جانب الاقناع لمن أراد الاقناع

فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار ، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام .. واطمأن النـاس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم ، وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوى الأمر والجاه

فاذا قيل ان المدعوين الى الاسلام لم يقتنعوا بفضله سابقين ، فلا ينفى هـذا القول أنهم اقتنعـوا به متأخرين .. ان الاسـلام مقنع لمن يختار ويحسن الاختيار ، الى جانب قدرته على اكراه من يركب رأسه ويقف فى طريق الاصلاح

ومن نظر الى الاقناع العقلى ، تساوى لديه من يستميلك الى العقيدة بتوزيع الدواء والطعام ، أو بتربية الأطفال عليهـا وهم لا يعقلون ومن يستميلك اليها بالخوف من الحاكم.. على فرض أن خوف الحاكم كان ذريعة من ذرائع نشر الاسلام

فالشـاهد الذى تطعمـه وتكسوه ليقول قولك فى احدى القضايا ، كالشاهد الذى ينظر الى السوط فى يديك فيقول ذلك القول .. كلاهما لا يأخذ باقناع الدليل ولا بنفاذ الحجة ، ولا يدفع عن عقيدة دفع العـارف البصير

وصفوة ما تقدم أن الاسلام لم يوجب القتال الا حيث أوجبته جميـع الشرائع وسوغته جميع الحقوق ، وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك .. الا أن يحال بينها وبين انتضائه ، أو نبطل عندها الحاجة الى دعوة الغرباء الى أديانها . وأن الاسلام عقيـدة ونظام ، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام فى أخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه

القائد البصير

لم يكن الاسلام اذن دين قتـال ، ولم يكن النبى رجلا مقـاتلا يطلب الحرب للحرب أو يطلبهـا وله مندوحة عنها ، ولكنه مع هـذا كان نعم القائد البصير اذا وجبت الحرب ودعته اليها المصلحة اللازمة .. يعلم من فنونها بالالهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة ، ويصيب فى اختيار وقته

وتسيير جيشه وترسيم خططه اصابة التوفيق واصابة الحساب واصابة الاستشارة . وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار والانشاء ، لأن القيادة الحسنة هى القيادة التى تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهى التى تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام

وقد كانت غزوة بدر هى التجربة الأولى للنبى عليه السلام فى ادارة المعارك الكبيرة ، فلم يأنف أن يستمع فيها الى مشورة الحباب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال الى غير المكان الذى نزل فيه ، ثم وعى من تجربة واحدة ما قل أن يعيه القادة المنقطعون للحرب من تجارب شتى .. فلو تتبع حروبه عليه السلام ناقد عسكرى من أساطين فن الحرب فى العصر الحديث ليقترح وراء خططه مقترحا أو ينبه الى خطأ ، لأعياه التعديل

ونختار أبرع القادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذى كان هو الأسلوب الغالب فى العصور الماضية ، والذى ظهر فى الحرب العالمية الحاضرة أنه لا يزال الخطوة الأخيرة فى جميع الحروب ، على الرغم من الحصون والسدود .. لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق فى خطط النبى العسكرية ، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم

١ — فنابليون كان يوجه همه الأول الى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع ، فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع .. وانما كانت عنايته الكبرى منصرفة الى مبادرة الجيش الذى يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان ، وهو على يقين أن الفوز فى هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التى يلجأ اليها جلة القواد

وعنده أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور .. أن يختار الموقع الملائم له ، وأن يختار الفرصة ، وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداده

وكان النبى عليه السلام سابقا الى تلك الخطط فى جميع تفصيلاتها .. فكان كما قدمنا لا يبدأ أحدا بالعدوان ، ولكنه اذا علم بعزم الأعداء

على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال ، بل ربما وصل اليه الخبر كما حدث فى غزوة تبوك والناس مجدبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة .. فلا يثنيه ذلك عن الخطة التى تعودها ، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال ، ولا يبالى ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدى فلم يحدث ما توقعوه

وكان عليه السلام يعمد الى القوة العسكرية حيث أصابها ، فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها .. ولا يضيع الوقت فى انتظار ما يختاره أولئك الأعداء ، واضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة فى أيدى الهاجمين ، الا أن يكون الهجوم وبالا على المقدمين عليه ، كما حدث فى غزوة الخندق

٢ ـ وكان نابليون يقول أن نسبة القوة المعنوية الى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة الى واحد ..

والنبى عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التى هى فى الحقيقة قوة الايمان . وربما بلغت نسبة هذه القوة الى الكثرة العددية كنسبة خمسة الى واحد فى بعض المعارك ، مع رجحان الفئة الكثيرة فى السلاح والركاب الى جانب رجحانهم فى عدد الجنود .. ومعجزة الايمان هنا أعظم جدا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة . فالنبى عليه السلام كان يحارب عربا بعرب ، وقرشيين بقرشيين ، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة .. فلا يقال هنا أن الفضل لقوم على قوم فى المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا فى جيوش نابليون ، وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والايمان

٣ ـ وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية التى يتناولها اقتداره .. فكان يحارب الانجليز بمنع تجارتهم وسفنهم أن تصل الى القارة الأوربية ، وتحويل المعاملات عن طريق انجلترا الى طريق فرنسا ..

وهكذا كان النبى عليه السلام يحارب قريشا فى تجارتها ، ويبعث السرايا فى أثر القوافل كلما سمع بقافلة منها

وأنكر بعض المتعصبين من كتاب أوروبا هذه السرايا وسموها « قطعا للطريق » ، وهى هى سنة المصادرة بعينها التى أقرها « القانون الدولى » وعمل بها قادة الجيوش فى جميع العصور ، ورأينا تطبيقها فى الحرب الحاضرة والحرب الماضية ، رشيدا تارة وغاليا فى الحمق والشطط تارة أخرى

٤ ــ وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه الى الجيش ، ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة

ونرجع الى غزوات النبى عليه السلام فلا نرى انه حاصر محلة ، الا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التى عسى أن تخرج منها قبل استعدادها ، أو قبل نجاحها فى الغدر والوقيعة ، كما حدث فى حصار بنى قريظة وبنى قينقاع ، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم فى الميدان المختار بغير كبير اختلاف

٥ ــ وكان نابليون معتدا برأيه فى الفنون العسكرية ولا سيما الخطط الحربية ، ولكنه كان مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغنى عن مشاورة صحبه فى مجلس الحرب الاعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال

ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه فى خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول ، ومن ذلك ما صنعه ببدر ــ وألمعنا اليه آنفا ــ حين أشار عليه الحباب ابن المنذر بالانتقال الى مكان غير الذى نزلوا فيه أول الأمر ثم بتعوير الآبار وبناء حوض للشرب لايصل اليه الأعداء ، وقيل فى روايات كثيرة أنه عمل بمشورة سلمان الفارسى فى حفر الخندق عند المنفذ الذى خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة . فحفر الخندق وعمل النبى بيديه الكريمتين فى حفره

وقبول النبى مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة ، وسنة من سنن القواد الكبار ، غير أننا نعتقد أنه عليه السلام كان خليقا أن يشير

يحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسى بين أهل المدينة فى ابان الهجمة عليها . لأنه عليه السلام كان شديد الالتفات الى سد الثغور وحماية الظهور فى جميع وقعاته . وفى وقعة أحد جعل الجبل الى ظهره وأقام على الشعب الذى يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين راميا مشددا عليهم فى التزام موقفهم ، قائلا لهم : « احموا ظهورنا فانا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وان رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وان رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وانما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فان الخيل لا تقدم على النبل »

والذى يفعل هذا فى شعب جبل لا يفوته أن يفعل مثله فى ثغرة مدينة ، ولكن المشاورة هنا هى المقصودة بالمضاهاة بين ما سبق اليه النبى وما تبع فيه نابليون . فهذه خصلة معهودة فى كبار القواد لا تقدح فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب

٦ — ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون

وكانت فراسة النبى فى ذلك مضرب الأمثال ، فلما رأى أصحابه يضربون العبدين المستقيين من ماء بدر ، لأنهما يذكران قريشا ولا يذكران أبا سفيان ، علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء ، وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجزور التى ينحرونها كل يوم ، فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذى يحتاج اليه . وكان صلوات الله عليه انما يعول فى استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس الى العلم بفجاجه ودروبه ، ويعقد ما يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل فيما هو خبير به من فنون حرب أو دلائل استطلاع

٧ — واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام ، وكان يقول أنه يخشى من أربعة أقلام ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام

والنبى عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة فى كسب المعارك وتغليب المقاصد ، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون الذمة التى عاهدوا عليها ويشهرون به وبالاسلام أو يثيرون العشائر لقتاله ويقذعون فى هجوه وهجو دينه ، فينفذ اليهم من يحاربهم فى حصونهم أو يتكفل له بالخلاص منهم

***

وعاب هذا بعض المغرضين من الكتاب الأوروبيين وشبهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الانجليزى كولردج الذى كان يخوض فى ذمه ويستهوى الاسماع بسحر حديثه

الا أن الفارق عظيم بين الحالتين ، لأن حروب الاسلام انما هى حروب دعوة أو حروب عقيدة ، وانما هى فى مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الالهية والوثنية ، وليس وقوف الجيش أمام الجيش الا سبيلا من سبل الصراع فى هذا الميدان

فليس فى حالة سلم مع النبى اذن من يحاربه فى صميم الدعوة الدينية ، ويقصده بالطعن فى لباب رسالته الاسلامية ، وان لم ينفر الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهده ، وانما هو مقاتل فى الميدان الاصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين ، ولا سيما اذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة الا ريثما تعود

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح ، فلا يجوز له أن يقتل أحدا لا يحمل السلاح فى وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب ازهاق حياته . وما نهض نابليون لنشر دين أو تفنيد دين ، ولا كان للرسول الاسلامى من غرض لو جاز له أن يقبل المسالمة ممن يحاربونه فى دينه وان لم يشهروا السيف فى وجهه ، فان الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذى يضربون فيه

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التى سبق اليها محمد وجرى عليها

نابليون بعد مئات السنين ، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح

لم يتخذ محمد الحرب صناعة ، ولا عمد اليها كما أسلفنا الا لدفع غارة واتقاء عداوة ، فاذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعا اليه ، فله فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الذى تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع الى أن سكن فى منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأمى بين رمال الصحراء

ولقدكانت خبرة النبى ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال، فكانت طريقته فى اختيار المكان والغرض أو فى اختيار القائد وتزويده بالوصايا والاتباع مثلا يحتذى فى جميع العصور ، ولا سيما العصر الحديث الذى كثرت فيه ذرائع التخبئة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة ، فكثرت فيه — من ثم — حاجة المقاتلين الى استقصاء أحوال الأعداء

ففى الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التى تصدر الى قواد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو فى عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض ، الى أمثال ذلك من العلامات التى تعين بها الجهات

ويتفق فى أمثال هـذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعا على سر البعثة ورجاله جميعا يجهلونه ولا يعرفون أهم خارجون فى غزوة أم فى مناورة استطلاع ، الى ماقبل الحركة المقصودة بساعات معدودات ، وهنالك تصدر الأوامر التى لابد من صدورها للتهيؤ والتنفيذ ، ولاخوف من كشفها فى تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذى يقابلها به العدو اذا انكشف له قبل تنفيذها بفترة وجيزة ، ولا سيما اذا كانت الحركة من حركات البحار

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة

فقد عرفت فى المأثورات النبوية على أتم أصولها التى تلاحظ فى أمثالها ، ومن ذلك أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا

ينظر فيه حتى يسير يومين ، وفحواه أن « سر حتى تأتى بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحدا من أصحابك على المسير معك ، وامض فيمن تبعك حتى تأتى بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم »

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثا وقديما وعند بداءة الدعوات على التخصيص

فأولها كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبى عليه السلام ، فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عينا عليه وعلى أصحابه من قبل قريش ، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما فى البوح به من الخطر المحظور ، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون وأن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنة حكيمة من سنن النبى عليه السلام فى جميع المطالب ، وهى فى حروب الدعوات على التخصيص أقمن باتباع ، ولهذا كان اذا أراد غزوة ورى بغيرها على النحو الذى يتبعه قادة الحروب الى الآن

ومما لوحظ فى كتاب النبى لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم وصاته ألا يكره أحدا منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته ، وهذا هو أهم الملاحظات فى هذا المقام

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذى يتقيه اذ يفر من القتال ، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعه من أرسلوه ، بل لعله ينقلب الى النقيض فيحرف الاخبار عمدا ، أو يتلقاها على غير اكتراث ، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه

ولهذا تعانى الدول أكبر العناء فى مراقبة الجواسيس بالجواسيس وفى امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة ، حتى تطمئن الى صحته قبل الاعتماد عليه

وفى الحرب الحاضرة تجربة جديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين

فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطيارات وراء الصفوف ، فيتسللون الى مراكز المواصلات ويعيشون بين القرى المعزولة ، فيشيعون فيها الرعب والحيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة ، ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد

قيل فى الاعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير ، وقيل فى انتقادها والتنبيه الى خطرها كثير

فمن دواعى الاعجاب بها أنها أفادت فى قطع المواصلات واشاعة الذعر وتضليل المدافعين ، وانها شىء جديد فى شكله وان لم يكن جديدا فى غايته ومرماه

ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيهـا تتوقف على العقيـدة وحسن النية . فهى تستلزم أن يكون الرائد غيورا على عمله متحمسا لانجازه رقيبا على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه ، فليس أيسر له اذا هو انفرد وأعوزته الرغبة فى انجاز عمله من أن يستأسر فى أول مكان يصل اليه من بلاد الأعداء ، طلبا للسلامة ، ولا عقاب عليه الى نهاية القتال . ثم يتعلل بما شاء من المعاذير ان وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه ، وهيهات أن تستجمع الأدلة عليه فى أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة ان لم ينفذها مريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول اليهم ، وهى لهـذا أحرى أن تحسب من وحى اخوان الطريق والهام العقائد لا من النظام الذى يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود ، فلولا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفخون فى نفوس الناشئة جذوة البغضاء ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللدد الذى يغنى عن الرقابة ساعة التنفيذ لحبطت الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب

وهاهنا تتجلى حكمة النبى عليه السلام فى اشتراط الرغبة والطواعية

وأجتناب القسر والاكراه

فهذه « أولا » بعثة منفردة لا سبيل الى الاكراه الفعال بين رجالها اذا أريد

وهى « ثانيا » بعثة استطلاع لا يغنى فيها عمل الكاره المقسور ، وألزم ما يلزم العامل فيها ايمانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه ، فان أعوزته هذه الصفة فقد أعوزه كل شىء

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع فقد كان النبى عليه السلام عليما بمزاياه معنيا به غاية العناية ، يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، فى حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية فى الوقت الضرورى ، ويحول من ثم دون الانتصار عليه

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون فى هذا الميدان حين أصيب فى وسائل الاستطلاع ، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون فى روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم

فمن أسباب هزيمة نابليون اهماله النصائح التى سمعها فى مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل فى الحرب الروسية ، لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع

ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ويخلون المدن والطرقات حتى لايرى فيها ديارا يسأله عن مكان الجيش المتراجع أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذى كان شديد التعويل عليه

أما هتلر فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والأناة

فقد اشتهر أنه كان فى مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم

واشتهر أنه أخطأ فى استطلاع أخبار القوم اذ خيل اليه أن الشعب

الروسى يتحفز للثورة ويترقب الاغارة عليه لنصرة المغير كائنا من كان ، ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافى ، وهو عنصر الجرمان

ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون ، ولكنه لم يخطىء قط مثل هذا الخطأ فى جميع غزواته وكشوفه ، ولعلنا نفهم — كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والامثلة الباقية — أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين

وينبغى ألا تمر بنا سرية عبد الله بن جحش دون أن نستوفى كل ما فيها من الشئون العسكرية . لأنها تشتمل على أكثر من جانب واحد من جوانب السنة النبوية والتشريع الاسلامى فى هذه الشئون

فهى سرية استطلاع كما علمنا لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه

لكن حدث بعد فض الكتاب أن اثنين من رجال السرية ذهبا يطلبان بعيرا لهما ضل فأسرتهما قريش ، وهما سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان

ثم نزل الركب بنخلة فمرت بهم عير قريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمى ، آخر شهر رجب . وكانت قريش قد حجزت أموال أناس من المسلمين منهم بعض من فى السرية . فتشاوروا فى قتال أهل العير ، وحاروا فيما يصنعون : ان تركوا العير تمضى ليلتها امتنعت بالحرم وفاتهم تعويض ما حجزته قريش فى هذه الفرصة السانحة ، وان قاتلوا أهلها قتلوهم فى شهر حرام ، لكنهم اندفعوا الى القتال فأصابوا من أصابوه ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمى بسهم فأرداه ، وأسروا رجلين

وقفل عبد الله بن جحش ومن معه الى المدينة وقد حجزوا للنبى عليه السلام الخمس من غنيمتهم ، فأباه عليه السلام وقال لهم : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، وعنفهم اخوانهم لمخالفة النبى ، وساءت لقياهم بين أهل المدينة

وراحت قريش تثير ثائرة العرب ، واندس جماعة من اليهود يحضأون نار الفتنة ، وتنادوا أن محمدا وأصحابه قد أباحوا الدماء والأموال فى الشهر الحرام ، وقال المسلمون فى مكة : بل كان ذلك فى شعبان ، ثم نزلت

الآيات : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا »

فقبض النبى العير والأسيرين ، وطلبت قريش فداءهما فقال عليه السلام : « لاتفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ، فانا نخشاكم عليهما ، فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم »

هذه قصة السرية وما وقع فيها خلافا لأمر النبى وما نجم عنها من تشريع فاذا نحن كتبناها باصطلاح العصر الحديث فكيف نكتبها ؟ وكيف نفهمها ؟

هى لا خلاف حادثة طلائع أو حادثة حدود :

ترسل احدى الدول طليعة من جندها الى حدودها للكشف أو للحراسة ، فيقع الاشتباك بينها وبين طليعة فى بلاد دولة أخرى على غير علم من الحكومتين

فالذى يحدث فى هذه الحالة أن تنظر الحكومة الاخرى الى المسألة كأنها مسألة فردية عرضية لا تستوجب القتال . وتكتفى بما ينال المسئولين على أيدى حكومتهم من جزاء أو تأنيب ، وينحسم النزاع

هذا أو تصر الحكومة الاخرى على طلب الترضية . فان قبلتها الحكومة المطلوبة فالنزاع منحسم ، وان لم تقبلها فالمفاوضة والمساومة أو امتشاق الحسام

ذلك اذا نظر الفريقان الى المسألة كأنها مسألة فردية عرضية ولم يشأ أحدهما أو كلاهما أن يضعاها موضع التشريع العام لتقرير الحكم الذى تجريان عليه فيها وفى أمثالها ، أو تقرير ما يعترفان به وما ينكرانه من الشرائط والأصول

وقريش لم تكتف بالنظر الى حادثة السرية كأنها حادثة فردية عرضية ، ولم تعلن الحرب توا لأنها تبيت النية لاعلانها بعد حين .. ولكنها أثارت مسألة تشريع عام فى قتال الشهر الحرام . فوجب أن ينص الاسلام على

هذا التشريع صريحا لا لبس فيه ، وهذا الذى كان

ليست المسألة أن عبد الله بن جحش قد خالف أمر النبى فهذا أمر مفروغ منه ولا محل للبحث فيه

انما المسألة هى : ما الحكم بعد الآن فى قتال الأشهر الحرم ؟.. وماذا يبلغ من حق المشركين فى الاحتماء بحرمة هذه الأشهر اذا كانوا لا يرعون للمسلمين حرمة ولا يزالون يقاتلونهم ويردونهم عن دينهم ما استطاعوا ؟ وما الجواب على تشهير قريش واحتجاجها بالحرمات التى لا ترعاها ؟

هذا هو الحكم الذى وجب أن يعلنه الاسلام ، وقد أعلنه على الوجه الذى دانت به الشرائع الحديثة فى علاقاتها الحربية ولا تزال تدين به حتى اليوم . فهناك حرمات دولية اذا خالفتها احدى الدول بطل احتماؤها بها وأحل لغيرها أن يخالفها كما خالفتها أو يتخذ من القصاص ما يردع الشر ويعوض الخسارة ، والا كانت الحرمات درعا للمعتدين ولم تكن مانعا لهم وسدا فى وجوههم كما أريد بها أن تكون

***

واليوم تنقطع العلاقة بين دولتين فى حالة حرب أو جفاء فيجوز لكلتيهما أن تحجز ما عندها من أموال الدولة الأخرى وأن تأسر الذين فى بلادها من رعاياها ، ويجوز لها أن تجعل تلك الأموال ضمانا لسداد المغارم التى تنزل بها وبأبنائها ، وأن تتخذ من المعتقلين رهائن تعاملهم بمثل ما يعامل به المعتقلون من أبنائها ، فى سجون الدولة الأخرى

فالذى حدث بعد سرية عبد الله بن جحش هو هذا بعينه ، وهو حكم القانون الدولى المتفق عليه : أسيران بأسيرين ، وأموال العير بالأموال التى حجزتها قريش للمسلمين . ولا محل لضجة الناقدين من المبشرين والمتعصبين فى تعقيبهم على هذا الحادث المألوف أو على حكم النبى والاسلام فيه ، فان أصحاب هذه الضجة يعمون عما حولهم وينسون أن المعاملات الدولية فى زمانهم لم تفصل فى أمثال هذه الحوادث بحكم أنفع ولا أعدل من الحكم الذى ارتضاه النبى ونزل به القرآن ، وهو حكم

مساواة يدين به المسلمون كما يدانون ، ويحار المعتسف لو شاء أن يستبدل به ما هو خير منه وأدنى الى النفاذ والاتباع

وكان هذا القائد الملهم الخبير بتجنيد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع خبيرا كذلك بتجنيد كل قوة فى يديه متى وجب القتال ، ان قوة رأى وان قوة لسان وان قوة نفوذ ، فما نعرف أن أحدا وجه قوة الدعوة توجيها أسد ولا أنفع فى بلوغ الغاية من توجيهه عليه السلام

غرضان

والدعوة فى الحرب لها ـ كما لا يخفى ـ غرضان أصيلان بين أغراضها العديدة .. أحدهما اقناع خصمك والناس بحقك ، وهذا قد تكفل به القرآن والحديث ودعاة الاسلام جميعا ، فالدين كله دعوة من هذا القبيل

وثانيهما ، اضعافه عن قتالك باضعاف عزمه وايقاع الشتات بين صفوفه .. وربما بلغ النبى برجل واحد فى هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة ، وبالمكاتب والدواوين ، وبدر الأموال

قال ابن اسحق ما ننقله ببعض تصرف : « ان نعيم بن مسعود الغطفانى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، انى قد أسلمت ، وان قومى لم يعلموا باسلامى .. فمرنى بما شئت ..

فقال رسول الله : انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت فان الحرب خدعة ... أى ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضا فلا يقوموا لنا ولا يستمروا على حربنا

« فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة ـ وكان لهم نديما فى الجاهلية ـ فقال : يا بنى قريظة ، قد عرفتم ودى اياكم وخاصة ما بينى وبينكم

قالوا : صدقت .. لست عندنا بمتهم

« فقال لهم : ان قريشا وغطفان ليسوا كأنتم .. البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه الى غيره ، وان قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه . وقد ظاهرتموهم

عليه .. وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره .. فليسوا كأنتم !.. فان رأوا نهزه أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم . فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا محمدا حتى تناجزوه

« فقالوا له : لقد أشرت بالرأى

« ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من قريش : قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا . وانه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم .. فاكتموا عنى !

« قالوا : نفعل

« قال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا اليه : انا قد ندمنا على ما فعلنا . فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم ، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل اليهم أن نعم .. فان بعثت اليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم ، فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا

« ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، انكم أهلى وعشيرتى وأحب الناس الى ولا أراكم تتهموننى . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم

« قال : فاكتموا عنى

« قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟

« فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم

« فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، أرسل أبو سفيان ابن حرب ورؤوس غطفان الى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم : أنا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر.. فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا اليهم :

ان اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، ولسنا مع ذلك بمقاتلى ان ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا الى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه

« فلما رجعت اليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : والله ان الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا الى بنى قريظة : انا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا

« وقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا : ان الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق . ما يريد القوم الا أن تقاتلوا ، فان رأوا فرصة انتهزوها ، وان كان غير ذلك انشمروا الى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم

« ... وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم .. ثم رحلت قريش وغطفان الى بلادها ، وانصرف رسول الله عن الخندق راجعا الى المدينة »

هذه دعوة نعيم بن مسعود

وما نجحت دعوة قط برجل واحد نجاح هذا الرجل ، ولا انتهزت فرصة العناصر الطبيعية والعناصر التى تتألف منها جماعة الأعداء كما انتهزت هذه الفرصة .. فكل كلمة قيلت لطائفة من طوائفهم فهى الكلمة التى ينبغى أن تقال فى الوقت الذى ينبغى أن تفعل فيه فعلها ، وهذه هى دعوة الاضعاف والتمزيق كأمضى ما تكون

قائد بغير نظير

عندما تنعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية ينبغى أن ننظر الى فكرة القائد قبل أن ننظر الى ظواهر المعارك أو الى أشكالها وأحجامها ، لأننا اذا نظرنا الى الظواهر فلا معنى اذن للمقارنة على الاطلاق اذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون فى ميدان واحد أضخم من

عشرة آلاف ، وان حربا تدار بالمذياع والتليفون أعجب من حرب تدار بالفم والاشارة ، وان نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والابل ، وان المدفع أمضى من السيف والرصاصة أمضى من السهم . فلا معنى اذن لمقارنة بالظواهر تنتهى الى نتيجة واحدة .. هى استضخام الحرب الحديثة والنظر الى القيادة الغابرة كأنها شىء صغير الى جانب القيادة التى توجه هذه الضخامة

لكننا اذا نظرنا الى فكرة القائد ، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة فى القيادة لا نراها فى توجيه مليون .. بينهم الراجل والراكب ، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة

وهذه الفكرة هى التى ترينا محمدا عليه السلام قائدا حربيا بين أهل زمانه بغير نظير فى رأيه وفى الانتفاع بمشورة صحبه ، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة فى توجيه كل ما يتوجه على يدى قائد من قوى الرأى والسلاح والكلام

وهذه القدرة هى شهادة كبرى للرسول تأتى من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال ..

فمن كانت عنده هذه الأداة النافذة فاقتصر بها على الدفاع واكتفى منها بالضرورى الذى لا محيص عنه ، فذلك هو الرسول الذى تغلب فيه الرسالة على القيادة العسكرية ، ولا يلجأ الى هذه القيادة الا حين توجبها رسالة الهداية

ويزيد هذه الشهادة عظما أن الرجل الذى يجتنب القتال فى غير ضرورة رجل شجاع غير هياب ..

شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجوز فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة ، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال ..

ان بعض المستشرقين زعموا أنه عليه الصلاة والسلام قد اشترك فى حرب

الفجار بتجهيز السهام ، لأنه عمل أقرب الى خلقه من الخوض فى معمعة القتال .. وكأنهم أرادوا انه لم يكن قادرا على المشاركة فى المعمعة بغير ذلك

فهذا خطأ فى الاحاطة بمزايا هذه النفس العظيمة التى تعددت جوانبها حتى تجمعت فيها أطيب صفات الحنان وأكرم صفات البسالة والاقدام ..

فمحمد كان فى طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب ، وكان على فارس الفرسان يقول : « كنا اذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم .. فما يكون أحد أقرب منه الى العدو »

ولولا ثباته فى وقعة حنين ، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده فى وجه الرماة والطاعنين ، لحقت الهزيمة على المسلمين

وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعا ، وقد هددها الأعداء بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه اليه الشجاعة الكريمة لم يدعه اليه شيء .. لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قرير فى داره ، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يثنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب الى غيره

ومشاركته فى الوقعات الاخرى هى مشاركة القائد الذى لا يعفى نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له ، فهى شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى ، وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود

واذا كان القائد خبيرا بالحرب قديرا عليها غير هياب لمخاوفها ، ثم اكتفى منها بالضرورى الذى لا محيص عنه .. فذلك هو الرسول تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية ، وتأتى جميع صفاته الحسنى تبعا لصفات الرسول

خصائص العظمة

لكن للعظمة خصائص تدعو الى العجب ، وان كانت معروفة الأسباب.. وناهيك بالعظمة التى ترتقى هذا المرتقى

فمن تلك الخصائص أنها قد توصف بالنقيضين فى وقت واحد ..

لأنها متعددة الجوانب ، فيراها أناس على صورة ويراها غيرهم على صورة أخرى ، وربما رأتها العين الواحدة على اختلاف فى الوقتين المختلفين ..

ولأنها تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد ، وبين الطرفين مجال للاعتدال يستقيم للراشدين ، ومجال للمغالاة من هنا وللمغالاة من هناك ..

ولأنها عميقة الأغوار فلا يسهل استبطانها لكل ناظر ، ولا يتأتى تفسيرها لكل مفسر

وهذا اذا سلمت النفوس من سوء النية .. فأما اذا ساءت النيات وران الهوى على البصائر فلا عجب اذن فى الضلال

ومن خصائص العظمة النبوية فى محمد عليه السلام أنه وصف بالنقيضين على ألسنة المتعصبين من أعداء دينه .. فهو عند أناس منهم صاحب رقة تحرمه القدرة على القتال ، وهو عند اناس آخرين صاحب قسوة تضريه بالقتل واهدار الدماء البشرية فى غير جريرة . وتنزه محمد عن هذا وذاك ..

فاذا كانت شجاعته عليه السلام تنفى الشبهة فى رقة الضعف والخوف المعيب ، فحياته كلها من طفولته الباكرة تنفى الشبهة فى القسوة والجفاء .. اذ كان فى كل صلة من صلاته بأهله أو بمرضعاته أو بصحبه أو بزوجاته أو بخدمه مثلا للرحمة التى عز نظيرها فى الأنبياء

ولا نقف كثيرا عند الحوادث التى ذكرها المتعصبون ليستدلوا بها على اهدار الدماء فى غير جريرة . فأكثرها لم يثبت قط ثبوتا يقطع الشك فيه ، ولا سيما القول بتحريض النبى عليه السلام على قتل عصماء بنت مروان اليهودية لأنها كانت تهجو الاسلام والمسلمين . فان النبى عليه السلام قد نهى فى قول صريح عن قتل النساء وكرر نهيه فى غير موضع ، حتى قال بعض الفقهاء بمنع قتل المرأة وان خرجت للقتال ، ما لم يكن ذلك لدفع خطر لا يدفع بغير قتلها

والحادث الوحيد الذى يستحق الالتفات اليه هو مقتل كعب بن الأشرف الذى كان يهجو المسلمين ، ويقدح فى دينهم ، ويؤلب عليهم الأعداء ، ويأتمر بقتل النبى ، ويدخل فى كل دسيسة تنقض معالم الاسلام .. وكان مع قومه بنى النضير معاهدا على أن يحالف المسلمين ، ويحارب من يحاربونهم ، ولا يخرج لقتالهم ، ولا يقابلهم الا بما يقابل به الحليف حليفه من المودة والمعونة

فنقض العهد وزاد على نقضه تأليب العرب مع قومه على النبى وصحبه ، وانه رجع الى المدينة « فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم » وافترى عليهن وعليهم ما ليس يفتريه رجل شريف وليس يرضاه فى عرضه عربى غيور

ورد فى حديث مقتله أن الرهط الذين خرجوا لقتله انتهوا الى حصنه ، فهتف به أبو نائلة — وكان حديث عهد بعرس — فوثب فى ملحفته .. فأخذت امرأته بناحيتها وقالت : « انك امرؤ محارب ، وأن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة ! »

وصدقت امرأته حين وصفته بأنه محارب يعامل معاملة المحاربين وقد حنثوا فى ايمانهم ، فلم يكن راعيا لعهده ولم يكن له وازع من نفسه ولا من قومه ، ولم يكن مأمونا على المسلمين وهو لائذ بحصنه .. فهو أقل الناس حقا فى أمان

وجاء فى الخبر أن النبى عليه السلام أقر مقتله ، فعاب بعض المؤرخين الأوربيين ذلك وحسبوه خروجا على سنن القتال يشبه فعلة نابليون الكبير حين أمر باختطاف الدوق دنجان ومحاكمته بغير حق .. مع ما بين الحادثين من بون بعيد بيناه من قبل فلا نعود اليه ..

الا اننا نوجز هنا فلا نزيد على أن نشير الى حكم القانون الدولى فى أحدث العصور على من يؤخذون بصنيع معيب كصنيع ابن الأشرف ، وان لم يبلغ مبلغه من الغدر والكيد والاساءة الى الاعراض

وذلك هو حكم الأسير الذى ينطق بعهد الشرف ألا يعود الى القتال . فان القانون الدولى يوجب عليه أن يوفى بعهده ويوجب على حكومته ألا

تندبه الى عمل ينقض ما عاهد الأعداء عليه ، ويقضى بحرمانه حق المعاملة كما يعامل أسرى الحرب اذا شهر السلاح على الذين أطلقوه أو على حلفائهم المحاربين فى صفوفهم ويصح اذن أن يحاكم كما يحاكم المذنبون ويقضى عليه بالموت (١)

فقوانين العصر الحديث اذن تعاقب بالموت جريمة أهون من جريمة كعب ابن الأشرف بكثير، لأنه تجاوز الغدر الى التأليب والائتمار وثلب الأعراض

وليس فى توقيع هذه الأحكام قسوة ولا رحمة ، لأن المرجع فيها الى الضرورة التى أوجبت القصاص وفرضته على الناس فى أحوال السلم بين أبناء الأمة الواحدة ، فضلا عن أحوال القتال بين الأعداء

أسرى غزوة بدر

ويلحق بقتل ابن الأشرف ما أخذه بعض المستشرقين من قتل بعض الأسرى بعد غزوة بدر وخروج النبى الى ساحة الحرب لرؤية صرعى المعركة وغنائمها بعد انتهائها .. فهو أمر لا يصح الحكم فيه الا بالنظر الى موضعه وموقعه واشخاصه ، لأنه ليس بالحكم العام الذى اتبعه الاسلام فى جميع الأسرى وجميع الحروب ، وانما هى حالة أفراد كانوا معروفين بتعذيب المسلمين والتنكيل بهم فى غير مبالاة ولا نخوة . وليست هى كحالة الأسرى الذين يقعون فى أيدى أعدائهم غير معروفين بماض ولا بحاضر سوى انهم جند كسائر الجند الذين يحشدهم الأعداء .. فقتل الأسرى بعد بدر أن هو الا قصاص كقصاص المتهمين بالتعذيب وقد وقعوا فى أيدى من يتولى عقابهم من الغالبين . جاز هذا فى كل قانون ، وجاز أن يحاسب المغلوب على جرائمه التى ليست هى من فروض القتال أو من مباحاته فى شىء .. وفرق بين معاملة هؤلاء ومعاملة أسير كل ما تعلمه فى شأنه أنه جندى لا بغضاء بينك وبينه قبل حمل السلاح ولا بعد وضع السلاح ، وليس فى عمله محل للثأر والمحاسبة بعد انقضاء واجبه وهو القتال الشريف

---

(١) « اوبنهايم » الجزء الثانى صفحة ٣٠٢

أما رؤية القتلى فى ساحة الحرب ، فقد نسى فيها أولئك الناقدون أن اغتباط المنتصر بفوزه طبيعة انسانية لا غضاضة فيها .. ما لم تجاوز حدها الى الفرح برؤية الدماء لمحض الفرح برؤية الدماء . وهذا ما لم يزعمه أحد من شاهدى المعركة عن النبى عليه السلام ، ولا نم عليه كلام أحد من المشركين أو المسلمين

ونسى أولئك الناقدون كذلك أن الرجل الذى يرى الدم فى المدينة العصرية ، غير الرجل الذى يرى الدم فى حروب البادية وفى حياة البادية على الاجمال .. ونعنى بها حياة الرعاة التى تتكرر فيها اراقة الدم كل يوم ، وحياة القبائل التى كانت تغزو وتغزى فى كثير من الأيام ..

فانك لا ترمى بالقسوة طبيبا قد ألف النظر الى الجثث وأشلائها والاجسام الحية وجراحها .. لأن الطب لن يكون فى الدنيا رحمة من الرحمات ان لم يألف الأطباء هذه المناظر ويملكوا جأشهم وهم يفتحون أعينهم عليها . ولكنك قد ترمى بالقسوة انسانا لم تقع عينه على منظر مثلها ثم هى تفاجئه فلا ينفر منها . وما من رجل عاش فى البادية وشهد غزوة من غزواتها يمكن أن يقال فيه ان ساحة الحرب تفاجئه بما لم يكن يراه ، أو بما يستلزم النظر اليه قسوة فى الطباع واستراحة الى رؤية الدماء

كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدرا ، لينظروا بعين النبى الى عواقب هذه الوقعة التى أوشكت أن تصبح الوقعة الحاسمة فى تاريخ الاسلام ..

كان عليهم أن ينظروا هنالك بعين النبى الى جيشين .. أحدهما فيه السلاح والخيل والعدد ، والآخر فى ثلث من يقاتلونه عددا ، ويكاد أن يتجرد من كل سلاح غير السيف ومن كل مطية غير الأقدام ..

وكان عليهم أن يلمسوا اشفاق النبى من عاقبة هذه الوقعة ويستمعوا اليه وهو يناشد ربه : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ... »

وكان عليهم أن ينظروا اليه ، وقد مد يديه وشخص ببصره وجمع نفسه فى صلاته .. حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه وأبو بكر يرده ويناديه : « بعض مناشدتك ربك فان الله منجز لك ما وعدك .. وهو لا يلتفت الى سقوط ردائه ولا الى مناداة صفيه ، لاستغراقه فى الدعاء .. »

وكان عليهم أن يعلموا حرص قريش أن يستبقوا رجالا منهم ، يرجعون الى مكة قبل المعركة أو بعدها ليثابروا على مناوأة النبى واعادة الكرة عليه حتى لا يهدأ له بال بعد الصبر على هذا الجهد ، وليس الصبر عليه بيسير..

كان على الناقدين أن يعلموا هذا كله ليعلموا أن الشعور بالفرح فى مثل هذا الموقف العصيب أمر لا غرابة فيه ، وانه شعور مطبوع فى نفس حية تجاوب كل ما يحيط بها من بواعث الحياة فى مواقف السلم أو مواقف القتال . فأول ما يبادر النفس الحية من شعور مطبوع صادق فى ذلك الموقف أن تغتبط بالنصر ، وتخرج من الضيق الى الفرج ، وتنظر فى ساحة الحرب الى من قضى فيها من قريش ومن عاد منها الى وكره ليعيد الكرة ويستأنف الايذاء والمكيدة ، وأن ترى ما هى تلك الأسلاب والغنائم التى أوشكت أن تفتن بعض المقاتلين لأنها أول شىء شهدوه من نوعه ، ولما يتنزل حكم الدين فى سلب أو غنيمة

ان محمدا رجل حى جياش النفس بدوافع الحياة ، وليس بناسك مهزول من نساك الصوامع الذين يكبتون فى جوانحهم كل دافعة وكل احساس.. فامتناعه أن يشهد نتيجة المعركة التى سبقتها كل تلك المخاوف وستلحق بها كل تلك العواقب أمر لم يكن بالمنتظر من قائد فى مثل موقفه ، ولم تكن توجبه الفطرة الانسانية على المقاتل .. وهو فى اللحظة الأولى بعد الظفر خليق أن يعلم مدى انتصاره ، ومدى ما يتوقعه بعده ، ومدى ما فعلته الفئة القليلة بالفئة الكثيرة ، ليقيس عليه ما تفعله مثلها فيما يليها من وقعات . وهؤلاء مراسلو الصحف الحربيون الذين يدرسون اليوم أشباه هذه المواقف يجدون من واجبهم ألا يتخلفوا عن ساحات القتال بعد انجلاء الفريقين ، ليشرحوا دروس النصر والهزيمة بينهما ويسجلوا ما لا غنى عن

تسجيله فى جميع الحروب . فانصراف محمد عن ساحة بدر على أثر النصر عمل غريب يخل بمكانة القائد وبواجب التحقيق والاستفادة من كل ما يفيد

بعد معركة الاحزاب

ونحن فى صدد الحديث عن الرحمة والقسوة يحسن بنا أن نستقصى ما ذكره المؤرخون الأوربيون من مآخذ فى هذا الباب ، وأهمه عدا ما قدمناه قتل المقاتلين من بنى قريظة بعد معركة الاحزاب

فان أولئك المؤرخين يستعظمون قتلهم ويحسبونه مخالفا للعرف المتبع فى الحروب ، وينسون أمورا لا يصدق الحكم فى هذه المسألة ما لم يذكروها ويستحضروها أتم استحضار . وهى أن بنى قريظة حنثوا فى أيمانهم مرات فلا يجدى معهم أخذ المواثيق من جديد ، وانهم قبلوا حكم سعد بن معاذ وهم الذين اختاروه ، وان سعدا انما دانهم بنص التوراة الذى يؤمنون به كما جاء فى التثنية : « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح ، فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب الهك ... » (اصحاح ١٠ الى ١٥ تثنية)

وينبغى أن يسأل الناقدون أنفسهم بعد هذا : ماذا كان مصير المسلمين لو ظفرت بهم الاحزاب ؟

فالقضاء الذى قضاه النبى فى بنى قريظة عدل وحكمة وصواب ، وما من أحد يقضى غير ذلك القضاء وهو مؤتمن على مصير أمة يرحمها من غدر أعدائها ، ومن لددهم فى خصومتها ، ومن استباحتهم كل منكر فى التربص والوثبة بعد الوثبة عليها

وان حملة تأديبية واحدة من حملات العصور الحديثة يحملها قوم

مسلحون على قوم عزل يذودون عن أوطانهم وحقوقهم ، لفيها من البطش والتعذيب ما لم يحدث قط نظير له فى عقاب بنى قريظة ، ولا فى جميع الحروب التى نشبت بين النبى عليه السلام وبين أعداء له ولدينه ، هم المتفوقون عليه فى العدد والثروة والسلاح

ان عبقرية محمد فى قيادته لعبقرية ترضاها فنون الحرب ، وترضاها المروءة ، وترضاها شريعة الله والناس ، وترضاها الحضارة فى أحدث عصورها ، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء

عبقرية محمّد السّياسيّة

سياسة الخصوم والاتباع

السياسة على معان كثيرة فى العرف الحديث ..

فمنها ما يكون بين بعض الدول وبعض من المراسم والعلاقات ، ومنها ما يكون بين هذه الدول من معاهدات وخطط فى أعمالها الخارجية ، ومنها ما يكون بين الراعى ورعيتـه أو بين الاحـزاب والوزارات من برامـج ودعوات . ولكل معنى من هـذه المعانى اصطلاحه فى العرف الحديث ، وان جمعتها كلمة السياسة فى اللغة العربية

وقد تولى النبى عليه السلام أعمالا كثيرة مما يطلق عليه لفظ السياسة فى عموم مدلوله .. ولكننا لا نعرف بينها عملا واحدا هو أدخل فى أبواب السياسة ، وأجمع لضروبها ، وأبعد عن المشاركة فى صفة القيادة العسكرية أو صفة الوعظ العلنى أو سائر الصفات التى اتصف بها عليه السلام من عهد الحديبية فى مراحله جميعا ، منذ ابتدأ بالدعوة الى الحج الى أن انتهى بنقض الميثاق على أيدى قريش

ففى عهد الحديبية تجلى تدبير محمد فى سياسة خصومه وسياسة أتباعه ، وفى الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان ، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود

بدأ بالدعوة الى الحج ، فلم يقصره فى تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته .. بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربيـة التى تشارك المسلمين فى تعظيم البيت والسعى اليه ، فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة فى وجه قريش ، ومصلحة واحدة فى وجه مصلحتها . وفصل

بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الاخرى ، ثم أفسد على قريش ماتعمدوه من اثارة نخوة العرب وتوجيهها الى مناوأة محمد والرسالة الاسلامية . فليس محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها ، ولكنهم اذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم ، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم . فاذا خالفوا قريشا فى شىء فذلك شأن قريش وحدهم أو شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة ، وليس هو بشأن القبائل أجمعين

ثم أفسد على قريش من جهة أخرى ما تعمدوه من اغضاب العرب على الاسلام ، بما ادعوا من قطعه للأرزاق وتهديده للأسواق التى يعمرها الحاج ويستفيد منها الغادون الى مكة والرائحون منها .. فها هو ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين إلى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد البيت الحرام . فاذا حال بينهم حائل وبين ما يقصدون اليه ، فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه .. ولا وزر فيما أصاب الأرزاق أو أصاب الأسواق على المسلمين

وقد سمعنا كثيرا فى العصور الحديثة عن المقاومة السلبية أو المقاومة التى تجتنب العنف ولا تعتمد على غير وجه الحق والحجة ..

سمعنا بها فى الحركة الهندية التى قام على رأسها غاندى وتابعه فيها بعض مريديه ، حتى كان لها من الأثر فى ازعاج الحكومة البريطانية ما لم يكن للقنابل ولا للمشاغبات الدامية ..

وقيل يومئذ أن غاندى قد تتلمذ فى هذه الحركة على المصلح الروسى الكبير ليون تولستوى .. وقيل بل هو أحرى أن يعرفها من آداب البرهميين والبوذيين التى تحرم ايذاء الحيوان فضلا عن الانسان ، قبل أن يشرع ليون تولستوى مذهبه الجديد

والذين قالوا بهذا الرأى الاخير استبعدوا أن يتفق المسلمون والبرهميون والبوذيون على حركة غاندى وتبشيره بتلك المقاومة السلبية ، لاعتقادهم أن الاسلام قد شرع للقتال فلا يوائم المسلمين ما يوائم البوذيين

والبرهميين ، من اجتناب القوة والتزام السلم وترك المقاومة ..

لكن المثل الذى قدمه النبى صلوات الله عليه فى رحلة الحديبية ينقض ما توهموه ، ويبين لهم أن الاسلام قد أخذ من كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة بنصيب يجرى فى حينه مع مناسباته وأسبابه .. فلا هو يركن الى السيف وحده ولا الى السلم وحده ، بل يضع كليهما حيث يوضع ، ويدفع بكليهما حيث ينبغى أن يدفع . وهو الحكم المتصرف حيث يختار ما يختار ، وليس الآلة التى يسوقها السلم أو الحرب مساق الاضطرار

وقد خرج النبى الى مكة فى رحلة الحديبية حاجا لا غازيا .. يقول ذلك ويكرره ويقيم الشواهد عليه لمن سأله ، ويثبت نية السلم بالتجرد من السلاح ، الا ما يؤذن به لغير المقاتلين

فلم يفصل بهذه الخطة بين العرب وقريش وحسب .. بل فصل بين قريش ومن معهم من الاحابيش ، وجعل الزعماء وذوى الرأى يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون من مسالك فى دفعه أو قبوله أو مهادنته ، وهو عليه السلام يكرر الوصاة لأتباعه بالمسالمة والصبر منعا للاتفاق بين خصومه على قرار واحد ، وقل من أتباعه من أدرك قصده ومرماه حتى الصفوة المختارين

ولما اتفق الطرفان ـ المسلمون وقريش ـ على التعاهد والتهادن ، كانت سياسة النبى فى قبول الشروط التى طلبتها قريش غاية فى الحكمة والقدرة « الدبلوماسية » كما تسمى فى اصطلاح الساسة المحدثين

دعا بعلى بن أبى طالب فقال له : « بسم الله الرحمن الرحيم »

فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش : « أمسك ! لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم »

فقال النبى : « أكتب باسمك اللهم »

ثم قال : « أكتب (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو) »

فقال سهيل : « أمسك ! لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن

أكتب اسمك واسم أبيك »

وروى أن عليا تردد فمسح النبى ما كتب بيده ، وأمره أن يكتب « محمد بن عبد الله فى موضع محمد رسول الله »

ثم تعاهدوا على أن من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه ، وانه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه .. ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه ، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا اليها فى العام الذى يليه ، ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قربها ، ولا سلاح غيرها

ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد قتال انهزم فيه المشركون وانتصر فيه المسلمون ، لوجب أن يكتب على غير هذا الاسلوب .. فيعترف المشركون كرها أو طوعا بصفة النبوة ، ولا يردون أحدا من مواليهم أو قاصريهم يذهب الى النبى ويلحق بالمسلمين

ولكنه عهد مهادنة أو عهد « ايقاف أعمال العداء الى حين » كما يسمونه فى اصطلاح العصر الحاضر .. فلا يعوزه شيء من الاصول المرعية فى أمثال هذه العهود ، من اثبات صفة المندوبين التى لا ارغام فيها لأحد الطرفين ولا مخالفة لدعوى الفريقين ، ومن حفظ كل لحقه فى تجديد دعواه واستئناف مسعاه

فلو أن النبى عليه السلام شرط على قريش أن ترد اليه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعوى الهداية الاسلامية ، ونقض الوصف الذى يصف به المسلمين .. فان المسلم الذى يترك النبى باختياره ليلحق قريشا ليس بمسلم ، ولكنه مشرك يشبه قريشا فى دينها وهى أولى به من نبى الاسلام

أما المسلم الذى يرد الى المشركين مكرها فانما الصلة بينه وبين النبى الاسلام ، وهو شيء لا سلطان عليه للمشركين ولا تنقطع الصلة فيه بالبعد والقرب .. فان كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه ، وان كان وثيق الدين فبقى على دينه فلا خسارة على المسلمين

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هى الخاسرة بذلك الشرط الذى حسبته غنما لها وخذلانا لمحمد صلوات الله عليه .. فان المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد فى حوزته رعاية لعهده ، قد خرجوا الى طريق القوافل يأخذونها على تجارة قريش وهى أمان فى عهد الهدنة بين الطرفين ، فلا استطاع المشركون أن يشكوهم الى النبى لأنهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة ، ولا استطاعوا أن يحجزوهم فى مكة كما أرادوا يوم أملوا شروطهم فى عهد الحديبية ، ولو قضى العهد بولاية النبى على من ينفر من مسلمى مكة لجاز للمشركين أن ينقضوه أو يطالبوا النبى بالمحافظة عليه

وتم العهد .. فعرف من لم يعرف ما أفاء على الاسلام بعد قليل

فجهر بمحالفة النبى من لم يكن يجهر بولائه .. واستراح النبى من قريش ، ففرغ ليهود خيبر وللممالك الأجنبية يرسل الرسل الى عظمائها بالدعوة الى دينه ، وفتح الأبواب لمن يفدون اليه ممن أنكروا بغى قريش وأمنوا أن تكون نصرتهم للاسلام حربا يبتلون فيها بما لا يطيقون

ويوم نزلت الآية الكريمة على أثر اتفاق الحديبية : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما » لم يفقه الكثيرون معناها فى حينها ، ولم يتبينوا موضع الفتح من ذلك الاتفاق الذى حسبوه محض تسليم .. ولكنهم فهموا أى فتح هو بعد سنتين ، وعلموا أن من الفتوح ما يكون بغير السيف ، وما يشبه الهزيمة فى ظاهره عند من يتعجلون ولا يحسنون النظر الى بعيد

الفتح المبين

كان فى تلك السنة فتح يراه الناظر بعين الغيب ولا يراه الناظر بعينه ، ولكنها سنة واحدة ثم رأى الفتح المبين من لا يرون بغير العيون .. رأوه وامتلأت عيونهم بالنظر اليه ، فسر قوما وساء آخرين

ففى السنة التالية نادى الرسول أصحابه أن يتجهزوا للحج ولا يتخلف

أحد ممن شهد الحديبية ، فخرجوا فى شوق المنطلق بعد منع والمنتظر بعد صبر ، الا من استشهد فى خيبر وأدركته الوفاة خلال العام . وخرج معهم جمع كبير ممن لم يشهدوا الحديبية يتبعهم النساء والاطفال ، وساقوا أمامهم ستين بدنة مقلدات للهدى ، وقد حملوا السلاح والدروع والرماح وعلى رأسهم مائة فارس يقودهم محمد بن سلمة

فلما انتهى الرسول وصحبه الى ذى الحليفة قدم الخيل أمامه ، وعلمت قريش بالنبأ ففزعوا وبعثوا بمكرز بن حفص فى نفر منهم فجاءوا يقولون : « والله يا محمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر .. تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطت عليهم ألا تدخل الا بسلاح المسافر : السيوف فى القرب ؟ » فقال عليه السلام : « انى لا أدخل عليهم بسلاح » قال مكرز: « هو الذى تعرف به . البر والوفاء »

وانما حمل النبى السلاح للحيطة كما قال لصحبه : « ان هاجنا هائج من القوم كان السلاح قريبا منا » ... وتركه فى الحراسة على مقربة من مكة حيث يوصل اليه عند الحاجة اليه

ثم أقبل عليه السلام على ناقته القصواء وجموع المسلمين محدقون به متوشحون بالسيوف يلبون ويهللون ، وأخذ عبد الله بن رواحة بزمام القصواء وهو ينشد :

خلوا بنى الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير فى رسوله
يا رب انى مؤمن بقيله انى رأيت الحق فى قبوله

وأوشك وقد هزته النخوة أن يصيح فى قريش صيحة الحرب ، فنهاه عمر رضى الله عنه وأمر النبى أن ينادى ولا يزيد : « لا اله الا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وخذل الاحزاب وحده » . فرفع ابن رواحة بها صوته الجهير ، وتلاه المسلمون يرددونها وتهتز بها جنبات الوادى القريب، فيسمعها من فارقوا مكة لكيلا يسمعوها ولا يروا ركب النبى يخطو فى نواحيها

وكان الفتح الذى بصر به عيانا من لم يره يوم الحديبية بنور البصيرة ، وأسلم من الضعفاء والأقوياء من كان عصيا على الاسلام : فريق منهم بهرهم وفاء النبى بعهده مع استطاعة نقضه ، وفريق منهم راعهم سمت الدين ورحم الاسلام فيما بين المسلمين ، وجمال ما بينهم وبين نبيهم من طاعة وتمكين ، وفريق منهم علموا أن العاقبة للاسلام فجنحوا الى طريق السلامة والسلام ، وحسبك ان عمرة القضاء هذه قد جمعت فى آثارها من أسباب الاقناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وهما فى رجاحة الخلق والعقل مثلان متكافئان ، وان كانا لا يتشابهان

وهكذا تجلت عبقرية محمد فى سياسة الأمور كما تجلت فى قيادة الجيوش . فكان على أحسن نجاح فى سياسته اذ نادى بعزيمة الحج وهو لم يفتح مكة بعدده وعدته ، واذ دعا المسلمين وغير المسلمين الى مصاحبته فى رحلته ، واذ توخى ما توخى من طريقة المسالمة واقامة الحجة فى انفاذ عزيمته ، واذ قبل العهد الذى كبر قبوله على أقرب المقربين من عترته ، واذ نظر الى عقباه ووصل به الى القصد الذى توخاه

عبقرية محمد الإدارية

ملكات شخصية

فى الاسلام أحكام كثيرة مما يدخل فى تصرف رجال الادارة كما نسميهم اليوم .. وفيه وصايا كثيرة عن المعاملات ، كالمساناة والمبايعة والاستقراض والشفعة والتجارة وسائر شئون المعيشة الاجتماعية يقتدى بها المشترعون فى جميع العصور

ولكنا لا نريد بما نكتب عن النبى أن نسرد أحكام الفقه ونبسط وصايا الدين ، فهى مشروحة فى مواطنها لمن شاء الرجوع اليها

وانما نريد أن نعرض لأعماله ووصاياه من حيث هى ملكات شخصية وسلائق نفسية ، تلازمه حيث كان مؤديا لرسالة الدين ، أو مؤديا لغير الرسالة من سائر أعمال الانسان

كذلك لا يعنينا مثلا أن نتكلم عن « الادارة » كأنها نصوص المنشورات و « اللوائح » التى تدار بها الدواوين وتجرى عليها تفصيلات الحركة فى مكاتب الحكومة ، فان هذه وما اليها هى أعمال منفذين مأمورين وليست أعمال مديرين آمرين . وانما نعنى الملكة الادارية من حيث هى أساس فى التفكير : من اعتمد عليه استطاع أن يقيم بناء الادارة كلها على أسس قويمة ، ثم يدع لغيره تفصيلات الأضابير والأوراق

فليس فى وسع رجل مطبوع على الفوضى مستخف بالتبعة أن يؤسس ادارة نافعة ولو كان فيما عدا ذلك كبير العقل كبير الهمة

أما السليقة المطبوعة على انشاء الادارة النافعة فهى السليقة التى تعرف النظام ، وتعرف التبعة ، وتعرف الاختصاص بالعمل ، فلا تسنده الى

كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم على هواه

وقد كانت هذه السليقة فى محمد عليه السلام على أتم ما تكون

كان يوصى بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعى أو العمل المجتمع الذى يحتاج الى تدبير . ومن حديثه المأثور : « اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » . ومن أعماله المأثورة انه كان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفة للأمير وخليفة للخليفة اذا أصيب من تقدمه بما يقعده عن القيادة . وكان قوام الرئاسة والامامة عنده شرطان هما جماع الشروط فى كل رئاسة ، وهما الكفاءة والحب : « أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين »

و « أيما رجل أم قوما وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه »

وكان الى عنايته باسناد الأمر الى المدير القادر عليه حريصا على تقرير التبعات فى الشئون ما كبر منها وما صغر ، على النهج الذى أوضحه صلوات الله عليه حيث قال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وهى مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »

وقد كانت أوامر الاسلام ونواهيه معروفة لطائفة كبيرة من المسلمين أنصارا كانوا أو مهاجرين ، ولكنه عليه السلام لم يترك أحدا يدعى لنفسه حقا فى اقامة الحدود واكراه الناس على طاعة الاوامر واجتناب النواهى غير من لهم ولاية الامر وسياسة الناس

فلما قتل بعض المسلمين غداة فتح مكة رجلا من المشركين غضب عليه السلام ، وقال فيما قال من حديثه المبين : « ... فمن قال لكم أن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا ان الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة ... » . ولما أراد أن يصادر الخمر نهج فى ذلك منهجا يقصد به الى

التعليم والاستنان كما جاء فى رواية ابن عمر حيث قال :

« أمرنى النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن آتيه بمدية ، فأتيته بها ، فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها فقال أغد على بها . ففعلت ، فخرج بأصحابه الى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام . فأخذ المدية منى فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطانيها ، وأمر الذين كانوا معه أن يمضوا معى ويعاونونى ، وأمرنى أن آتى الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر الا شققته ففعلت ، فلم أترك فى أسواقها زقا الا شققته»

وهذا تصرف المدير بعد تصرف النبى الذى يبين الحرام ويبين الحلال

فالخمر شربها وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين من تفقه منهم ومن لم يتفقه فى الدين ، ولكن المحرمات الاجتماعية ينبغى أن تكون فى يد ولى المسلمين لا فى يد كل فرد يعرف الحلال والحرام . وليست المسألة هنا مسألة تحريم وتحليل ولكنها مسألة ادارة وتنفيذ فى مجتمع حافل يشتمل على شتى المصالح والاهواء ، ولا يصاب ببلاء هو أضر عليه من بلاء الفوضى والاضطراب واختلاف الدعاوى وانتزاع الطاعة وتجاهل السلطان ، فلم يكتف النبى عليه السلام بصريح التحريم فى القرآن ، ولا أكتفى باسناد الامر الى غير معروف الصفة فى تنفيذ الاحكام ، بل خرج بنفسه ثم أمر رجلا بعينه وأناسا بأعينهم أن يمضوا فى اتمام عمله ، ولم يجعل ذلك أذنا لمن شاء أن يفعل ما شاء

وما أكثر ما سمعنا فى أيامنا الاخيرة عن الامن والنظام ، وتوطيد أركان الشريعة والقانون ، ولكننا لا نعرف فى كل ما قيل كلاما هو أجمع لوجوه الصواب فى هذه المسألة من قول النبى : « السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . ومن قوله فيما رواه عبادة بن الصامت : « ... ألا تنازع الأمر أهله الا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان » . ومن قوله : « الامام الجائر خير من الفتنة ، وكل لا خير فيه . وفى بعض الشر خيار » . ومن قوله : « ان الامير اذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم » الى أحاديث فى هذا المعنى هى جماع الضوابط التى تقوم عليها

الادارة الحكيمة ، والخطط السليمة المستقيمة ، بين آمر ومأمور

نظام وفوق النظام سلطان ، وفوق السلطان برهان من الشرع والعقل لاشك فيه ، وجميع أولئك على سماحة لا تتعسف النزاع ولا تتعسف الريبة ولا تلتمس الغلواء

هذا الالهام النافذ السديد فى تدبير المصالح العامة ، وعلاج شئون الجماعات ، هو الذى أوحى الى الرسول الأمى قبل كشف الجراثيم ، وقبل تأسيس الحجر الصحى بين الدول ، وقبل العصر الحديث بعشرات القرون ، أن يقضى فى مسائل الصحة واتقاء نشر الاوبئة بفصل الخطاب الذى لم يأت العلم بعده بمزيد ، حيث قال : « اذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها »

فتلك وصية من ينظر فى تدبيره الى العالم الانسانى بأسره لا الى سلامة مدينة واحدة أو سلامة فرد واحد . اذ ليس أصون للعالم من حصر الوباء فى مكانه ، وليس من حق مدينة أن تنشد السلامة لنفسها أو لأحد من سكانها بتعريض المدن كلها لعدواها

تدبير الشئون العامة

على أن الادارة العليا انما تتجلى فى تدبير الشئون العامة حين تصطدم بالاهواء وتنذر بالفتنة والنزاع ، فليست الادارة كلها نصوصا وقواعد يجرى الحاكم فى تنفيذها مجرى الآلات والموازين التى تصرف الشئون على نسق واحد ، ولكنها فى كثير من الاحيان علاج نفوس وقيادة اخطار لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك

وذلك هو المجال الذى تمت فيه عبقرية محمد فى حلول التوفيق واتقاء الشرور أحسن تمام . فما عرض له تدبير أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها الا أشار فيه بأعدل الآراء ، وأدناها الى السلم والارضاء

صنع ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر باقامة الحجر الأسود فى مكانه ، وهو شرف لا تنزل عنه قبيلة لقبيلة ، ولا تؤمن عقبى الفصل فيه بايثار احدى القبائل على غيرها ولو جاء الايثار من طريق المصادفة

والاقتراع ، فأشار محمد بالرأى الذى لا رأى غيره لحاضر الوقت ولمقبل الغيب المجهول . فجاء بالثوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كل زعيم فى طرف من أطرافه ، وكان من قسمته هو على غير خلاف بين الناس أن يقيمه بيده حيث كان ، وأن يتسلف الدعوة وهى مكنونة فى طوايا الزمان، ولو علموا بها يومئذ لما سلموا ولا سلم من عدوان وشنآن

وصنع ذلك يوم هاجر من مكة الى المدينة فاستقبلتـه الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله ، وهو يشـفق أن يقدح فى نفوسها شرر الغيرة بتمييز أناس منهم على أناس أو اختيار محلة دون محلة ... فترك لناقته خطامها تسير ويفسح النـاس لها طريقهـا حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك ، وفصلت فيما لو فصل فيه انسان كبير أو صغير لما مضى فصله بغير جريرة لاتؤمن عقباها بعد ساعتها ، ولوأمنت فى تلك الساعة على دخل وسوء طوية

وصنع ذلك يوم فضل بالغنـائم أناسا من أهل مكة الضعيف ايمانهم على الناس من الأنصار الذين صدقوا الاسلام وثبتوا على الجهاد ، فلمـا غضب المفضولون لم يكن أسرع منه الى ارضائهم بالحجة التى لا تغلب من يدين بها ، بل تريه انه هو الغالب الكاسب وانها تصيب منه المقنع والاقناع فى وقت واحد : « أوجدتم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟ ألا ترضـون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم؟ فو الذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ... »

كلام مدير فيه الادارة والرياسة هبة من هبات الخلق والتكوين ... فهو مدير حين تكون الادارة تدبير أمور ، ومدير حين تكون الادارة تدبير شعور ، وهو كفيل ألا يلى مصلحة من المصالح تعتورها الفوضى ويتطرق اليها الاختلال ، لأنه يسوسها بالنظام وبالتبعة ، وبالاختصاص وبالسماحة، وما من مجتمع يساس بهذه الخصال ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلال أو انحلال ، أو لخطل فى ادارة الأعمال

البليغ

« اللهم هل بلغت » !

هذه هى اللازمة التى رددها النبى فى أطول خطبه الأخيرة ، وهى خطبة الوداع

وهى لازمة عظيمة الدلالة فى مقامها ، لأنها لخصت حياة كاملة فى ألفاظ معدودات . فما كانت حياة النبى كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها الا حياة تبليغ وبلاغ ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله عليه السلام وهو يجود بنفسه « جلال ربى الرفيع فقد بلغت ! »

ولصدق هذه الدلالة نرى أن السمة الغالبة على أسلوب النبى فى كلامه المحفوظ بين أيدينا هى سمة الابلاغ قبل كل سمة أخرى . بل هى السمة الجامعة التى لا سمة غيرها ، لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات هى منها بمثابة الفروع

وكلام النبى المحفوظ بين أيدينا اما معاهدات ورسائل كتبت فى حينها ، واما خطب وأدعية ووصايا وأجوبة عن أسئلة كتبت بعد حينها وروعيت الدقة فى المضاهاة بين رواياتها جهد المستطاع

والابلاغ هو السمة المشتركة فى أفانين هذا الكلام جميعا ، حتى ما جرى منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر الى المرؤوسين أو مجرى الدعاء الذى يلقنه المسلم ليدعو الله على مثاله

أنظر مثلا الى قصة أصحاب الغار الثلاثة وتوسلهم بصالح الأعمال وهى كما جاء فى مختار مسلم

« ... بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا الى غار فى جبل .

فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم . فقال بعضهم لبعض : أنظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها ، لعل الله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم : اللهم انه كان لى والدان شيخان كبيران ، وامرأتى ، ولى صبية صغار أرعى عليهم . فاذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنى . وانه نأى بى ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما . فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمى . فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر . فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء

« ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء

« وقال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت اليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار . فتعبت حتى جمعت مائة دينار ، فجئتها بها

« فلما وقعت بين رجليها قالت : يا عبد الله ! اتق الله ولا تفتح الخاتم الا بحقه . فقمت عنها ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة . ففرج لهم

« وقال الآخر : اللهم انى كنت استأجرت أجيرا بفرق (١) أرز ، فلما قضى عمله قال : أعطنى حقى ، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه . فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها فقال : اتق الله ولا تظلمنى حقى ! قلت : اذهب الى تلك البقر ورعائها فخذها فقال : اتق الله ولا تستهزىء بى ! فقلت : انى لا أستهزىء بك . خذ ذلك البقر ورعاءها ! فأخذه فذهب به

« فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى

« ففرج الله ما بقى »

---

(١) اناء يسع ثلاثة آصع

توجيه الامراء والولاة

هذا أسلوبه عليه السلام فى التعليم بالقصص

فانظر الى أسلوبه فى توجيه الأمراء والولاة كما جاء فى مختار مسلم حيث قال : « كان رسول الله اذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : اغزوا باسم الله فى سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا . واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، فان أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء ، الا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فان هم أبوا فسلهم الجزية . فان هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم

« واذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه . ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فانكم ان تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله

« واذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فأنت لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا »

وهذا أسلوبه عليه السلام فى تعليم الولاة بالأوامر والوصايا

فانظر الى أسلوبه فى الرسائل من رسالته الى النجاشى حيث قال :

« سلم أنت . فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه

« وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فانى رسول الله

« وقد بعثت اليك ابن عمى جعفرا ونفرا معه من المسلمين ، فاذا جاءك فأقرهم ودع التجبر . فانى أدعوك وجنودك الى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى

« والسلام على من اتبع الهدى »

المعاهدات والمواثيق

أما أسلوبه فى المعاهدات والمواثيق فهذا طرف مما جاء فى كتابه عليه السلام بين المهاجرين والأنصار واليهود

« ... المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عائيتهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين

« وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاول ، وكل طائفة تفدى عانيها بالقسط بين المؤمنين

« وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تعدى عانيها بالقسط بين المؤمنين

« وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ... »

وهكذا الى آخر الكتاب

تلك نماذج من كلام النبى فى أربع أبواب مختلفات ، تتفرق موضوعاتها كما تتفرق القصص والأوامر والرسائل والمواثيق ، ولكنها كلها موسومة بسمة واحدة لا اختلاف فيها ، وهى سمة الابلاغ أو البلاغ المبين . وأصدق ما يقال فى تعريفها ما قيل فى تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة : أقرب موصل بين نقطتين

فليس أقرب من هذا الاسلوب فى ابلاغ الغرض منه

لا كلفة ولا غموض ولا اغراب ، وقلة الغريب ـ بل ندرته ـ فى كلام

النبى أجدر الأمور بالملاحظة فى اقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية

فمحمد العربى القرشى الناشىء فى بنى سعد العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية فى أطراف الجزيرة ، لم يكن فى كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه الى مراجعة ... وسر ذلك أنه يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل الى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب ، ومن ذلك ما روى عنه عليه السلام أنه كان يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه ، وأنه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال : « ان الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها »

وقد عرف عن النبى عليه السلام فى حياته الخاصة والعامة أنه كان قليل الكلام معرضا عن اللغو لا يقول الا الحق وان قاله فى مزاح

فمن ثم لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة . فاذا كرر اللفظ بعينه كما جاء فى بعض المعاهدات فذلك أسلوب المعاهدات الذى لا محيص عنه ، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه . فهو أيضا سمة من سمات الابلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق ، أو على سبيل الاعادة التى روى أنه كان يتوخاها عليه السلام أحيانا ليعقل عنه كلامه

وفى كتابه الى النجاشى زيادة من أسماء الله الحسنى ومن الاشارة الى المسيح وأمه لم تؤثر فى الكتب الاخرى ، ولكنها ألزم ما يلزم فى خطاب ملك مسيحى يراد منه أن يفهم كيف تتفق صفات الله والمسيح فى دينه وفى دين المسلمين الذى يدعى اليه ، وكيف يبتغى طريق المقابلة بين العقيدتين اذا شاء .. ما على الرسول الا البلاغ

وهذا هو البلاغ فى التعبير : كل كلمة تصل الى سامعها ، وكل كلمة مقصودة بمقدار

ولا زخرف ولا حيلة ولا مشقة متعمل فى ابتغاء التأثير ، الا الابلاغ الذى يليق بالرجولة والكرامة ، وعلى المعرض بعد ذلك وزر الاعراض

سجع كحلية الذهب

وكان عليه السلام يكره « سجع الكهان » الذى يخدعون به السامع ليوهموه أنه يستمع الى طلاسم السحرة والشياطين ، ولكنه لم يكن يأبى السجع بتة ولا يخلو كلامه من سجع يأتى على السجية ، ويغلب أن يكون ذلك فيما يرتل علانيــة كالأذان وما هو فى حكمــه ، أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة كقوله : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وان كان مائة شرط . قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وانما الولاء لمن أعتق » أو قوله : « ان الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ، ومنعا وهات ، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال »

ومذهبه فى هذه الحلية اللطيفة مذهبه فى كل حلية تليق بالرجل : فحولة فى القول وفحولة فى الزينة ، فسجعه عليه السلام كحلية الذهب التى يليق بالرجل أن يتحلى بها ، ولا مزيد

كتب اليه أبو سفيان كتابا يقول فى آخره :

« ... نريد منك نصف نخل المدينــة ، فان أجبتنا الى ذلك والا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار

تجاوبت القبائل من نزار ... لنصر اللات فى البيت الحرام
وأقبلت الضراغم من قريش ... على خيل مسومة ضرام

فأجابه بكتاب جاء فيه : « وصل كتاب أهل الشرك والنفاق والكفر والشقاق ، وفهمت مقالتكم . فوالله ما لكم عندى جواب الا أطراف الرماح وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا بضرب الحسام ، وبفلق الهام ، وخراب الديار ، وقلع الآثار ... »

فهذا السجع فى هذا المقام أصلح لخطاب الجاهليين ، لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين ، كما يعرفون منه معنى المناجزة والتخويف . ومن هنا أقر النبى نص الحلف الذى كان بين جده وخزاعة على ما كان به من

سجع وتفخيم يجعلونهما موثقا تعقد به المواثيق وتؤكد به الحرمات . وهذا نصه :

« باسمك اللهم . هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة حلفا جامعا غير مفرق : الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغر على الأصاغر ، والشاهد على الغائب . قد تعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد ، وأوثق عقد ، لا ينقض ولا ينكث ما أشرقت شمس على ثبير ، وحن بفلاة بعير ، وما أقام الأخشبان (١) واعتمر بمكة انسان : حلف أبد لطول أمد ، يؤيده طلوع الشمس شدا ، وظلام الليل مدا . وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متضافرون متعاونون . على عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على طالب ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معه على جميع العرب فى شرق أو غرب . أو حزن أو سهل ، وجعلوا الله على ذلك كفيلا ، وكفى به حميلا ... »

هذه أمثلة السجع الذى فاه به الرسول أو أقره من كلام غيره ، وما عداه من تجميل الكلام فهو تجميل الابلاغ الذى لا كلفة فيه

وقد أعانه عليه السلام على أسلوب الابلاغ أن الذين كانوا يستمعون اليه انما كانوا يستمعون الى كلام نبى محبوب مطاع . فهو نافذ فى نفوسهم بغير حيلة ، مستجمع لأسماعهم بغير تشويق قائم بالكفاية الوسطى التى لا حاجة بها الى افراط ولا خوف عليها من تفريط

أما رسائله الى الملوك والأمراء — ممن لم يسلم ولم يهتد — فانما كانت للابلاغ أول الأمر ثم يأتى بعدها التفسير والتفصيل على ألسنة المرشدين والموكلين بالاجابة فيما يسألونه عنه ، فهى كذلك قائمة على كفاية الابلاغ ، تلك الكفاية الوسطى التى لا افراط فيها ولا تفريط

ونقول ان الأمرين أعانا النبى على أسلوبه المبلغ البليغ ولا نقول انهما أنشآه وأوحياه . فان الحوار القليل الذى حفظ لنا من أيام الدعوة الاولى قبل استفاضة الدين واقبال الأتباع المؤمنين قد كانت له صبغة هذا

---

(١) جبلا مكة

الأسلوب بعينه غير ظاهر فيها أثر من الكلفة والاصطناع . لأن مصدر الفحولة فى الابلاغ ثقته بقوله لا ثقة المستمعين اليه . فكلامه كله نسق واحد فى هذه الخصلة ، وخطابه كله خطاب سهولة وكرامة ، وسياقه كله مطواع لا احتيال فيه ، ووصاته لمن يقتدى به أن يقصر الخطبة ويقل الكلام كما كان يقول لمن يبعث بهم من الولاة

ولا يفهمن من هذا أن مقتضيات الكلام لم يكن لها أثر فى اختلاف الوضع أو اختلاف الموقف وهو يخاطب الناس . فقد كان عليه السلام يلاحظ هذا الاختلاف ويعطيه حقه كما كان يفعل حين يتكىء على قوس وهو يخطب فى الحرب ، أو يتكىء على عصا وهو يخطب فى العظات ، وكان يبدو على وجهه ما يختلج بصدره اذا غضب أو أنذر « فكان اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش : صبحكم مساكم »

أسلوب عصرى

ولمن شاء أن يحسب أسلوب النبى ــ كتابة وخطابا ــ أسلوبا عصريا به المعاصرون فى زماننا هذا وفى كل زمان ... لأن الأسلوب الذى يخرج يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصرى فى جميع العصور ، ويخطىء من يحسب الوصل بين الجمل شرطا للكلام العربى القديم والفصل بينها علامة من علامات الأساليب المبتدعة فى الزمن الأخير ، ويخطىء كذلك من يحسب قبول الكلام لاشارات الترقيم علامة أخرى من علامات هذه الأساليب . فاليك الحديث الذى نقلناه آنفا وهو مثل من أمثله كثار حيث يقول عليه السلام : « مابال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ؟ ماكان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ، وان كان مائة شرط : قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وانما الولاء لمن أعتق »

هذا الحديث رضى البلاغة العربية فى وصله وفصله ، ورضى الأسلوب العصرى فى اشارات ترقيمه ، وآية على خطأ الذين يفرقون بين شروط البلاغة العربية ذلك النحو من التفريق

رأى النبى فى الشعر

وقد نقلت الينا تعقيبات معدودة عن رأى النبى فى الشعر والشعراء لا تدخل فى النقد الفنى وتدخل فى كلام الأنبياء الذين يقيسون الكلام بقياس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة . ومنها قوله : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد « ألا كل شىء ما خلا الله باطل » . وقوله عن امرىء القيس أنه صاحب لواء الشعراء الى النار ، وأنه كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى المقصود ، فكان يقول مثلا « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » لأنها لا تقبل التبديل مع بقاء المعنى ، ولكنه اذا نطق بقول سحيم عبد بنى الحسحاس : « كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا » قدم كلمة الاسـلام فقال : « كفى الاسلام والشيب للمرء ناهيا » لينفى ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد وأن سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون

وقد استحسن ما قيل من الشعر فى النضح عن الاسـلام والذود عنه وعن آله ، فكانت آراؤه هذه وشبيهاتها آراء الأنبياء فيما يحمدون من كلام ، لأنهم قد بعثوا لتعليم الناس دروس الخير والصلاح ، ولم يبعثوا ليلقنوهم دروسهم فى قواعد النقد والانشاء

جوامع الكلم

الا أن الابلاغ أقوى الابلاغ فى كلام النبى هو اجتماع المعانى الكبار فى الكلمات القصار ، بل اجتمـاع العلوم الوافيـة فى بضع كلمات وقد يبسطها الشارحون فى مجلدات

ومن أمثلة ذلك علم السلوك فى الدنيا والدين وقد جمعه كله فى أقل من سطرين قصيرين من قوله : « احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »

ومن أمثلته علم السياسة الذى اجتمع كله فى قوله : « كما تكونوا يول عليكم »

فأى قاعدة من القواعد الأصيلة فى سياسة الأمم لا تنطوى بين هذه الكلمات ؟

ينطوى فيها أن الأمم مسئولة عن حكوماتها لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالاكراه ، لأن الجهل جهلها الذى تعاقب عليه ، والاكراه ضعفها الذى تلقى جزاءه

وينطوى فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التى تعلنها الحكومة ، فلا سبيل الى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين ، ولا سبيل الى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والاشكال

وينطوى فيها أن الولاية تبع تابع وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وأحرى ألا يغير الوالى قوما حتى يتغيروا هم قبل ذلك

وينطوى فيها « أن الأمة مصدر السلطات » على حد التعبير الحديث

وينطوى فيها أن الأمة تستحق الحكم الذى تصبر عليه ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال

وذلك هو الابلاغ الذى ينفذ فى وجهاته كل نفاذ

ويلحق بهذا فى العلم بالتبعات قوله عليه السلام : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل »

فالمزايا الانسانية واجبات وأعباء وليست بالمتع والأزياء ، وعلم الانسان بالخير والشر يفرض عليه الفرائض التى يبتلى بها ، ولا يهنئه بالراحة التى يصبو اليها . وهو محسوب عليه وكذلك ذكاؤه محسوب عليه

وأمثال هذه الأحاديث فى أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الاحصاء فى هذا المقام

كان محمد فصيح اللغة فصيح اللسان فصيح الأداء

وكان بليغا مبلغا على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية ، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين ، بل قدوة المرسلين

محمّد الصدّيق

عطوف ودود

اذا كان الرجل محبا للناس ، أهلا لحبهم اياه ، فقد تمت له أداة الصداقة من طرفيها

وانما تتم له أداة الصداقة بمقدار ما رزق من سعة العاطفة الانسانية ومن سلامة الذوق ، ومتانة الخلق ، وطبيعة الوفاء

فلا يكفى أن يحب الناس ليحبوه . لأنه قد يحبهم وفى ذوقه نقص ينفرهم منه ويزهدهم فى حبه

ولا يكفى أن يكون محبا سليم الذوق ليبلغ من الصداقة مبلغها . فقد يكون محبا محبوبا حسن الذوق ثم يكون نصيبه من الخلق المتين والطبع الوفى نزرا ضعيفا لا تدوم عليه صداقة ، ولا تستقر عليه علاقة

انما تتم أداة الصداقة بالعاطفة الحية ، والذوق السليم ، والخلق المتين ، وقد كان محمد فى هذه الخصال جميعا مثلا عاليا بين صفوة خلق الله

كان عطوفا يرأم من حوله ويودهم ويدوم لهم على المودة طول حياته ، وان تفاوت ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام

كان صبيا فى الثانية عشرة يوم سافر عمه ، فتعلق به حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه فى سفره

وكان شيخا قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء من لا ينسى

وليس فى سجل المودة الانسانية أجمل ولا أكرم من حنانه على مرضعته حليمة ومن حفاوته بها وقد جاوز الاربعين ، فيلقاها هاتفا بها : أمى ! أمى ! ويفرش لها رداءه ويمس ثديها بيده ... كأنه يذكر ما لذلك الثدى

عليه من جميل ، ويعطيها من الابل والشاء ما يغنيها فى السنة الجدباء

ولقد وفدت عليه هوازن وهى مهزومة فى وقعة حنين وفيها عم له من الرضاعة ... لأجل هذا العم من الرضاعة تشفع النبى الى المسلمين أن يردوا السبى من نساء وأبناء ، واشترى السبى ممن أبوا رده الا بمال

وحضنته فى طفولتـه جارية عجماء فلم ينس لها مودتها بقية حيـاته ، وشغله أن تنعم بالحياة الزوجية ما يشغل الأب من أمر بناته ورحمه ، فقال لأصحابه : « من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن ... ومازال يناديها يا أمة يا أمة كلما رآها وتحدث اليها ، وربما رآها فى وقعة قتال تدعو الله وهى لا تدرى كيف تدعو بلكنتها الاعجمية ، فلا تنسيه الوقعة الحازبة أن يصغى اليها ويعطف عليها

وكان هذا عطفه على كل ضعيف ولو لم يذكره بحنان الطفولة ورحم الرضاع . فما نهر خادما ولا ضرب أحدا ، وقال أنس : « خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سـنين ، فما قال لى أف قـط ، ولا قال لشىء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشىء تركته : لم تركته ؟ »

وكان من أضحك الناس وأطيبهم نفسا ، صافى القلب اذا كره شيئا رؤى ذلك فى وجهه ، واذا رضى عرف من حوله رضاه

وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحياء كافة ولم يقصره على ذوى الرحم من الناس ولا على الناس من غير ذوى الرحم . فكان يصغى الاناء للهرة تشرب ، وكان يواسى فى موت طائر يلهو به أخو خادمه ، وأوصى المسلمين « اذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حظهـا من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين » وكرر الوصاية بها أن « اتقوا الله فى البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة »

وقال : « ان الله غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركى يلهث قد كاد يقتله العطش ، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من المـاء فغفر لها بذلك »

وقال فى هذا المعنى : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلا هى أطعمتها

ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض »

لا بل شمل عطفه الأحياء والجماد كأنه من الاحياء ، فكانت له قصعة يقال لها الغراء . وكان له سيف محلى يسمى ذا الفقار ، وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول ، وكان له سرج يسمى الداج وبساط يسمى الكز وركوة تسمى الصادر ، ومرآة تسمى المدلة ، ومقراض يسمى الجامع ، وقضيب يسمى المشوق

وفى تسمية تلك الاشياء بالاسماء معنى الألفة التى تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين ، كأن لها « شخصية » مقربة تميزها بين مثيلاتها ، كما يتميز الأحباب بالوجوه والملامح وبالكنى والالقاب

***

هذه العاطفة الانسانية التى رحبت حتى شملت كل ما أحاطت به وأحاط بها لم تكن هى كل أداة الصداقة فى تلك النفس العلوية ، بل كان معها ذوق سليم يضارعها رفعة ونبلا ويتمثل — فيما يرجع الى علاقات النبى بالناس — فى رعاية شعورهم أتم رعاية وأدلها على الكرم والجود

« كان اذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه ، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذى ينصرف عنه . واذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ناوله اياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده منه ... »

« وكان اذا ودع رجلا أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده ... »

« وكان أرحم الناس بالصبيان والعيال » ... « واذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته »

« وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها . وأصبر الناس على أقذار الناس »

يحفظ مغيبهم كما يحفظ محضرهم ويقول لصحبته : « من اطلع فى كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطلع فى النار »

ومع العاطفة الانسانية والذوق السليم والأدب الكريم : سمت جميل ونظافة بالغة وحرص على أن يراه الناس فى أجمل مرآه

ومع هذا كله أمانة يثق بها العدو فما بال الصديق ؟ وحسبك من ثقة الناس به ما أودعوه من أمانات وهم يناصبونه العداء ، فلم يخرج للهجرة وهو مهدد فى سربه حتى رد الامانات الى أصحابها ، وقد يكون فى ردها ما ينبههم الى خروجه ويأخذ عليه سبيل النجاة ، وهذا الى اشتهاره بالامانة فى صباه حتى سمى بالأمين قبل أن يتجرد لدعوة تنبغى لداعيها أمثال هذه الصفات

كل هذه المزايا النفسية ــ بل بعض هــذه المزايا النفسية ــ خليق أن يتم لصاحبه أداة الصداقة أوفى تمام ، وأن يجعله محبا لمن حوله جديرا منهم بأحسن حب وولاء . فلم يعرف فى تاريخ العظمة ــ لا بين الأنبياء ولا غير الأنبياء ــ انسان ظفر بنخبة من الصـداقات على اختلاف الأقـدار والبيئات والامزجة والاجناس كالتى ظفر بها محمد ، ولم يعرف عن انسان أنه أحيط من قلوب الضعفاء والاقوياء بما يشبه الحب الذى أحيط به هذا القلب الكبير

تقدم فى بعض فصول هذا الكتاب حديث زيد بن حارثة الذى خطف من أهله وهو صغير ثم اهتدى اليه أبوه واهتدى هو الى أبيه على لهفة الشوق بعد يأس طويل ، فلما وجب أن يختار بين الرجعة الى آله وبين البقاء مع سيده « محمد » اختار البقاء مع السيد على الرجعة مع الوالد ، وشق عليه أن يحتجب عن ذلك القلب الذى غمره بحبه ومواساته ، وهو ضعيف شريد لايرى ذويه ولا يدرى من هم ذووه

وكان لايغنى من لازموه أن يلزموه فى الحياة حتى يثقوا من ملازمتهم اياه بعد الممات . فضعف مولاه ثوبان ونحل جسمه وألح عليه الحزن فى ليله ونهاره ، فلما سأله السيد العطوف يستفسره علة حزنه ونحوله قال فى طهارة الأبرار : « انى اذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة ، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك لأنى ان دخلت الجنة فأنت تكون فى

درجات النبيين فلا أراك » ورويت هـذه القصـة فى أسباب نزول الآية « واطرباه غدا ألقى الأحبة محمدا وصحبه ..! »

وقد عنينا مما تقدم بحب الصداقة بين الانسان والانسان لأننا لم نقصد حب المؤمن لنبيه فى هـذا الباب . فقـد بلغ من امتـلاء قلوب المسلمين والمسلمات بهذا الحب أن المرأة كانت تسمع أنباء المعركة فينعى اليها خاصة أهلها وهى تسترجع وتعرض عن هذا لتسأل عن النبى وتهتم بسلامته قبل اهتمامها بسلامة الاخوة وبنى الاعمام . الا أننا عنينا محبة الصداقة فى هذا الباب لأنها هى المحبة التى جعلت كثيرا من النـاس يؤمنون بمحمد لمحبتهم اياه واطمئنانهم اليه ، فكانت سـابقة فى قلوبهم وأرواحهم لحب العقيدة والايمان

عظمة العظمات

ان عطف العظيم على الصغير حتى يستحق منه هذا الحب لفضيله يشرف بها مقام العظيم فى نظر بنى الانسان

ولكن قد يقال أن استحقاق العظيم أن يحبه العظماء لأشرف من ذلك رتبة وأدل على حظه الجليل من فضائل التفوق والرجحان ... وهذا صحيح لاريب فيه

وهنا أيضا قد تمت لمحمد معجزته التى لم يضارعه فيها أحد من ذوى الصداقات النادرة

فأحدقت به نخبـة من ذوى الاقدار تجمع بين عظمـة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأى وعظمة الهمة ، وكل منهم ذو شأن فى عظمته تقوم عليه دولة وتنهض به أمه ، كما أثبت التاريخ من سير أبى بكر ، وعمر ، وخالد ، وأسامة ، وابن العاص ، والزبير ، وطلحة ، وسائر الصحابة الاولين

وربما عظم الرجل فى مزية من المزايا فأحاط به الاصدقاء والمريدون من النابغين فى تلك المزية ، كما أحاط الحكماء بسقراط والقادة بنابليون

بل ربما أحاط الصالحون بالنبى العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح

عليه السلام وكلهم من معدن واحد وبيئة متقاربة
الكريمة : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا »

وأدرك الموت بلالا فأحاط به أهله يصيحون واكرباه وهو يجيبهم :

أما عظمة العظمات فهى تلك التى تجذب اليها الاصحاب النابغين من كل معدن وكل طراز ، وهى التى يتقابل فى حبها رجال بينهم من التفاوت مثل ما بين أبى بكر وعلى ، وبين عمر وعثمان ، وبين خالد ومعاذ ، وبين أسامة وابن العاص : كلهم عظيم وكلهم مع ذلك مخالف فى وصف العظمة لسواه

تلك هى العظمة التى اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق ، وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن ، وأصبحت تجمع اليها البأس والحلم ، والحيلة والصراحة ، والالمعية والاجتهاد ، وحنكة السن وحمية الشباب

تلك هى بلا ريب عظمة العظمات ، ومعجزة الاعجاز فى باب الصداقات

وما استحقها محمد الا بنفس غنيت بالحب وخلصت له حتى أعطت كل محب لها كفاء ما يعطيها : مودة بمودة وصفاء بصفاء ، وعليها المزيد من فضل التفاوت فى الاقدار

ولقد كان صاحب الفضل على أصفيائه جميعا بما هداهم اليه من نور العقل ونور البصيرة ، وهما أشرف من نور البصر لأنه نعمة يشترك فيها الانسان والعجماوات ، ونور العقل ونور البصيرة نعمتان يختص بهما الانسان . ومع هذا كان يذكر فضلهم ويشيد بذكرهم كما قال عن أبى بكر « ما أحد أعظم عندى يدا من أبى بكر : واسانى بنفسه وماله وأنكحنى ابنته » وكما قال عن أبى بكر وعمر : « أبو بكر وعمر منى بمنزلة السمع والبصر » وكما قال عن على : «على أخى فى الدنيا والآخرة» وكما قال عن بعض أصحابه : ان الله تعالى أمرنى بحب أربعة وأخبرنى انه يحبهم : على منهم ، وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان » وكما قال عن الانصار جميعا وهو فى مرض الموت : « استوصوا بالأنصار خيرا . انهم عيبتى التى

أويت اليهم ، فأحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » ... وغير ذلك كثير عن الصحابة كافة وعن بعضهم مذكورين بأسمائهم

***

على اننا نلمس دلائل هذا الفؤاد الرحب وهذا العطف الانسانى الشامل فى معاملته لأعدائه وشانئيه فضلا عن معاملته للأصفياء ، ومن ليس بينهم وبينه عداء ولا صفاء

فما ثأر من أحد أساء اليه فى شخصه ، وقد عفا عن رجل هم بقتله وهو نائم ورفع السيف ليهوى به فسقط من يده على كره منه ، وما حارب قط أحدا كان فى وسعه أن يسالمه ويحاسنه ويتقى شره

ومعاملته لعبد الله بن أبى الذى كان المسلمون يسمونه رأس النفاق مثل من أمثلة الاغضاء والصفح الجميل . فقد عاهد وغدر ثم عاهد وغدر وعاش ما عاش يكيد للنبى فى سره ويمالىء عليه أعداءه ، وشاع أن النبى عليه السلام قضى بقتله فتقدم ابنه وقال له : « يا رسول الله ، انه بلغنى انك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فان كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل اليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ، وانى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر الى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار»

فأبى النبى أن يقتله وآثر الرفق به ، وزاد فى افضاله واجماله فكافأ الولد خير مكافأة على خلوص نيته وايثاره البر بدينه على البر بأبيه . فأعطاه قميصه الطاهر يكفن به أباه وصلى عليه ميتا ووقف على قبره حتى فرغ من دفنه ، وقد حاول عمر أن يثنيه عن الصلاة على ذلك العدو الذى آذاه جهد الايذاء فذكر الآية : « ... استغفر لهم أو لا تستغفر لهم . ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ... » فقال : « لو أعلم أنى ان زدت على السبعين غفر له زدت »

***

هذه النفس المطبوعة على الصداقة والرحمة والسماحة ما أعجب

اتهامها بالقسوة على ألسنة بعض المؤرخين الاوربيين !

ما أعجب اتهامها بالقسوة لأنها دانت أناسا بالموت كما يدين القاضى مجرما بذنبه وهو من أرحم الرحماء !

ما أعجبهم اذ يذكرون العقوبة وينسون الذنب الذى استوجب العقوبة كما يستوجب السبب النتيجة

وأى ذنب ؟ ذنب لو قوبل به غير محمد لأراق فيه أنهارا من الدماء وله حجة من سلطان الدنيا والآخرة

فلا نذكر استهزاء المشركين به واعناتهم اياه والقاءهم عليه القذر والحجارة وائتمارهم بحياته وحياة أصحابه واخراجهم المسلمين من ديارهم الى أقصى الديار ، ولا نذكر العناد والاغاظة والاستثارة لغير جريرة الا أنهم دعوا الى عبادة الله والتحلى بمكارم الاخلاق وترك عبادة الاصنام وترك الرذيلة

لا نذكر شيئا من هذا فهو أطول من أن يحصيه هذا الكتاب ، ولكننا نذكر حادثا واحدا تجمع فيه من اللؤم ما تفرق فى كثير غيره ، وذلك حادث الرسل الاربعين ــ وقيل السبعين ــ الذين قتلوا فى بئر معونة ولا ذنب لهم الا أنهم ذهبوا تلبية لدعوة الداعين ليعلّموا من ينشد علم القرآن والدين ، غير مغصوب عليه

فماذا كانت دول الحضارة صانعة بالقاتلين الغادرين لو كان هؤلاء الاربعون أو السبعون مبشرين بالدين المسيحى قتلوا فى قبيلة من الهمج الذين يأكلون الآدميين ومن حقهم أن يعذروا كما تعذر الوحوش .. ان بقى من أبناء القبيلة من يروى أنباء المقتلة ، فقد يقال أن القوم لرحماء فى العقاب !

ولم يكن حادث بئر معونة بالحادث الوحيد من حوادث الغدر بالرسل الأبرياء . فلعلنا نختم هذا الفصل عن الصداقة بخير ما يختم به حين نشير الى غدر قبيلة هذيل بالرسل الستة الذين ذهبوا اليهم ليعلموا من شاء أن يتعلم أحكام الدين وهو آمن فى داره ، لا اكراه له ولا بغى عليه . فقتلوا

جميعا وجيء بأحدهم زيد بن الدَّثِنَة أسيرا ليباع ... فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه ، ونصب للقتل فسأله أبو سفيان مستهزئا : « أنشدك الله يا زيد . أتحب أن محمدا الآن عندنا فى مكانك تضرب عنقه وأنت فى أهلك ؟ » فأجابه زيد : « والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى ... »

فصاح أبو سفيان دهشا : « ما رأيت من الناس أحدا يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمدا ... »

من فعلة كهذه نعلم مدى ما استحقه محمد من حب الاصدقاء ومدى ما استحقه أعداؤه من جزاء ، فقد أحب أصدقاءه وأحبوه لأنه طبع على الصداقة . أما أعداؤه فقد لقوا جزاءهم لأنهم هم طبعوا على العداء والاعتداء

محمّد الرئيس

الرئيس الصديق

من الحسن أن نكتب عن محمد الرئيس بعد كتابتنا عن محمد الصديق . لأنه هو قد جعل للرئاسة معنى الصداقة المختارة ، فمحمد الرئيس هو الصديق الأكبر لمرؤوسيه ، مع استطاعته أن يعتز بكل ذريعة من ذرائع السلطان

فهناك الحكم بسلطان الدنيا

وهناك الحكم بسلطان الآخرة

وهناك الحكم بسلطان الكفاءة والمهابة

وكل أولئك كان لمحمد الحق الاول فيه : كان له من سلطان الدنيا كل ما للأمير المطلق اليدين فى رعاياه ، وكان له من سلطان الآخرة كل ما للنبى الذى يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون ... وكان له من سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به بين أتباعه أكفأ كفؤ وأوقر مهيب

ولكنه لم يشأ الا أن يكون الرئيس الاكبر بسلطان الصديق الاكبر : بسلطان الحب والرضا والاختيار

فكان أكثر رجل مشاورة للرجال ، وكان حب التابعين شرطا عنده من شروط الامامة فى الحكم بل فى العبادة . فالامام المكروه لا ترضى له صلاة

وكان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه . فروى أنه كان فى سفر وأمر أصحابه باصلاح شاة . فقال رجل : يارسول الله ! علىّ ذبحها . وقال آخر علىّ سلخها . وقال آخر : علىّ طبخها ... فقال عليه السلام : وعلىّ جمع الحطب . فقالوا : يارسول الله نكفيك العمل . قال : علمت أنكم

تكفوننى ، ولكن أكره أن أتميز عليكم ، ان الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه »

وأبى ، والمسلمون يعملون فى حفر الخندق حول المدينة ، الا أن يعمل معهم بيديه . ولولا انها سنة حميدة يستنها للرؤساء فى حمل التكاليف لأعفى نفسه من ذلك العمل واعفاه المسلمون منه شاكرين

وجعل قضاء حوائج الناس أمانا من عذاب الله أو كما قال : « ان لله تعالى عبادا اختصهم بحوائج الناس يفزع اليهم الناس فى حوائجهم . أولئك الآمنون من عذاب الله »

وقد كان أعلم الناس أن الاعمال بالنيات . ولكنه علم كذلك « ان الامير اذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم » فوكل الضمائر الى أصحابها والى الله ، وحاسب الناس بما يجدى فيه الحساب

سمع خصومة بباب حجرته فخرج اليهم قائلا : انما أنا بشر . وانه يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق ، فأقضى له بذلك . فمن قضيت له بحق مسلم فانما هى قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها »

واليوم يكثر اللاغطون بحرية الفكر ويحسبونها كشفا من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها ، ويحرمون على الحاكم أن يؤاخذ الناس بما فكروا به ما لم يتكلموا أو يعملوا ويكن فى كلامهم وعملهم ما يخالف الشريعة

فهذا الذى يحسبونه كشفا من كشوف العصر الاخير قد جرى عليه حكم النبى قبل أربعة عشر قرنا ، وشرعه لأمته فى أحاديثه حيث قال عليه السلام : « ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به »

وزعموا كذلك أن تقديم الرحمة على العدل فى تطبيق الشريعة دعوة من دعوات المصلحين المحدثين لم يسبقوا اليها ، وهى هى دعوة النبى العربى التى كررها ولم يدع قط الى غيرها فقال : « ان الله تعالى لما خلق

الخلق كتب بيده على نفسه أن رحمتى تغلب غضبى » وقال : « ان الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطى عليه ما لايعطى على العنف » وقال : « ان الله تعالى لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا ، ولكن بعثنى معلما ميسرا » وروى عنه غير صاحب من أصحابه انه ما خير بين حكمين الا اختار أيسرهما ، ما لم يكن فيه خرق للدين

وكان يوصى بالضعفاء ويقول لصحبه : « أبغونى الضعفاء فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » ويذم الترفع على الخدم والفقراء « فما استكبر من أكل مع خادمه وركب الحمار بالاسواق واعتقل الشاة فحلبها »

لكنه مع الرحمة بالصغير لا ينسى حق الكبير : « من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا »

اذ ليس الانصاف حراما على الكبراء حلالا لمن صغر دون من كبر ، فلكل حق ولكل انصاف . وانزال الناس منازلهم كما أمر قومه وهو خير شعار تستقيم عليه الحكومة ، وتنعكس أمور الأمم بانعكاسه

***

وكان النبى الرئيس يعلم أن الرئاسة لجميع المرءوسين وليست للموافقين منهم دون المخالفين ، فيأمر قومه أن « اتقوا دعوة المظلوم وان كان كافرا فانها ليس دونها حجاب »

واذا قال هذا رئيس ونبى فانها لأولى السنن أن يتبعها الرؤساء كافة ، لأنهم لم يبعثوا لنشر الدين ومحو الكفر كما بعث الانبياء

لقد كانت سنة الرئاسة عند محمد هى سنة الصداقة . فلو استغنى حكم عن الشريعة لاستغنى عنها حكم هذا الرئيس الذى جاء بالشريعة لجميع متبعيه

الزّوج

حق المرأة

الكلام عن زوج يستدعى الكلام عن مكانة امرأة عند رجل ، وعن مكانة النساء عامة عند الرجال عامة

وانما تعرف مكانة المرأة التى وصلت اليها بفضل محمد ودينه ، متى عرفت مكانة المرأة التى استقرت عليها فى الجاهلية ، ومكانة المرأة التى استقرت عليها فى عصره ـ وبعد عصره ـ وبين أمم أخرى غير الأمة العربية

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة فى الجاهلية وما صارت اليه بعد رسالة محمد :

كانت متاعا يورث ويقسم تقسيم السوائم بين الوارثين ، فأصبحت بفضل الاسلام ونبيه صاحبة حق مشروع ، ترث وتورث ولا يمنعها الزواج أن تتصرف بمالها وهى فى عصمته كما تشاء

وكانت وصمة تدفن فى مهدها فرارا من عار وجودها ، أو عبئا يدفن فى مهدها فرارا من نفقة طعامها . فأصبحت انسانا مرعى الحياة ينال العقاب من ينالها بمكروه

ولم تكن فى البلاد الاخرى بأسعد حظا منها فى البلاد العربية

فلا نذكر شرائع الرومان واستعبادها النساء . ولا نذكر المتنطسين فى صدر المسيحية وتسجيلهم عليها النجاسة وتجريدهم اياها من الروح

وكفى أن نذكر عصر الفروسية الذى قيل فيه انه عصر المرأة الذهبى بين الأمم الاوربية ، وان الفرسان كانوا يفدون النساء بالدم والمال

فهذا العصر كان كما قال الدارسون له : عصر الحصان قبل أن يكون عصر المرأة أو عصر « السيدة المفداة »

وقد أجمله جون لانجدون دافيز صاحب « التاريخ الموجز للنساء » (١) فقال : « ان عصر الفروسية كان معروفا بما لحظ فيه من فقدان الشبان على الجملة الاهتمام بالجنس الآخر . ولعلنا نقل من الدهشة لذلك لو أننا وعينا كلمة الفروسية وذكرنا أنها لم تكن ذات شأن بالسيدات كما كانت ذات شأن بالخيل على خلاف ما يروق الكثيرين أن يذكروه . فقلما بلغ الاهتمام بالمرأة مبلغ الاهتمام بالحصان فى عصر الفروسية الا على اعتبار أنها عنوان ضيعة »

الى القارىء محادثة من كتاب أغانى الآداب والتحيات Chanson de Geste يروى فيها أن ابنة أوسيس Auseis جلست فى نافذتها ذات يوم فعبر بها فتيان ــ هما جاران وجربرت ــ وقال أحدهما : « أنظر . أنظر ياجربرت : وحق العذراء ما أجملها من فتاة ! فلم يزد صاحبه على أن قال : يا لهذا الجواد من مخلوق جميل !.. دون أن يلتفت بوجهه .. وعاد صاحبه يقول مرة أخرى : « ما أحسبنى رأيت قط فتاة بهذه الملاحة . ما أجمل هاتين العينين السوداوين ! » وانطلقا وجربرت يقول : ما أحسب أن جوادا قط يماثل هذا الجواد » وهى حادثة صغيرة ولكنها واضحة الدلالة . اذ قلة الاهتمام تورث الازدراء » ... والحق أن عصر الفروسية يرينا بعض الشواهد الواضحة على هذا الازدراء . واليك مثلا حادثة فى الكتاب المتقدم يروى فيها أن الملكة بلانشفلور ذهبت الى قرينها الملك بيبن Pepin تسأله معونة أهل اللورين . فأصغى اليها الملك ثم استشاط غضبا ولطمها على أنفها بجمع يده فسقطت منه أربع قطرات من الدم وصاحت تقول : « شكرا لك . ان أرضاك هذا فأعطنى من يدك لطمة أخرى حين تشاء »

ولم تكن هذه حادثة مفردة لأن الكلمات على هذا النحو كثيرا ما تتكرر كأنها صيغة محفوظة . وكأنما كانت اللطمة بقبضة اليد جزاء كل امرأة

---

(١) « Short History of Women » by John Langdon Davies

جسرت فى عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة

« ... ... ومتى كانت المرأة تزف الى زوجها عفو الساعة وكثيرا ما تزف الى رجل لم تره قبل ذلك، اما لتسهيل المحالفات الحربية والمدد العسكرى، أو لتسهيل صفقة من صفقات الضياع . ومتى كانت بعد زفافها الى فارس مجنون بالحرب معطل الذكاء قد يكون فى معظم الاحوال من الاميين — عرضة للضرب كلما واجهته بمخالفة — أترى سيدة القصر اذن واجدة لها رحمة أو ملاذا من حياة الشقاء أو من صحبة قرين ليس لها بأهل ؟ »

***

ولقد تقدم الزمن فى الغرب من العصور المظلمة الى عصور الفروسية الى ما بعدها من طلائع العصر الحديث ولما تبرح المرأة فى منزلة مسفة لا تفضل ما كانت عليه فى الجاهلية العربية ، وقد تفضلها منزلة المرأة فى تلك الجاهلية

ففى سنة ١٧٩٠ ، بيعت امرأة فى أسواق انجلترا بشلنين لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التى كانت تؤويها

وبقيت المرأة الى سنة ١٨٨٢ ، محرومة حقها الكامل فى ملك العقار وحرية المقاضاة

وكان تعلم المرأة سبة تشمئز منها النساء قبل الرجال ، فلما كانت اليصابات بلاكويل تتعلم فى جامعة جنيف سنة ١٨٤٩ — وهى أول طبيبة فى العالم — كان النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويأبين أن يكلمنها ، ويزوين ذيولهن من طريقها احتقارا لها كأنهن متحرزات من نجاسة يتقين مساسها

ولما اجتهد بعضهم فى اقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة فلادلفيا الامريكية أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصادر كل طبيب يقبل التعليم بذلك المعهد وتصادر كل من يستشير أولئك الاطباء

وهكذا تقدم الغرب الى أوائل عصرنا الحديث ولم تتقدم المرأة فيه تقدما يرفعها من مراغة الاستعباد التى استقرت فيها من قبل الجاهلية العربية

فماذا صنع محمد ؟ وماذا صنعت رسالة محمد ؟

حكم واحد من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة من الحقوق كفاء ما فرض عليها : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف »

وحكم آخر من أحكامه العاليـة أمر المسلم باحسـان معاشرتها ولو مكروهـة غير ذات حظوة عنـد زوجهـا : « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »

وأباح لها الدين فى الجهاد أن تكسب كما يكسب الرجال : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن »

ولم يفضل الرجل عليهـا الا بما كلفه من واجب كفالتها واقامة أودها والسهر عليها

أما محمد فقد جعل خيار المسلمين خيـارهم لنسائهم « أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم »

وأمر بمداراة ضعفها ونقصها لأن « المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة ، فان استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج ، وان ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها »

وأوجب على الرجـل أن يتجمل لامرأته ويبدو لهـا فى المنظر الذى يروقها ، فقال عليه السلام مما قال فى هـذا المعنى وهو كثير « اغسلوا ثيابكم وخـذوا من شـعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفـوا ، فان بنى اسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم »

وأوجب على الرجل اذا خطب امرأة أن يظهـرها على عيبه ان كان به عيب مستور : « اذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها أنه يخضب »

وبلغ من رعاية شعورها ومداراة خجلهـا الذى فطرت عليه أنه أوجب الرجل أن يمتعها كما تمتعه لأنها لا تطلب لنفسها ما يطلـبه الرجل منها : « فاذا جامع أحدكم أهله فليصدقها . ثم اذا قضى حاجتـه قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها »

وكان تأديبه المسلمين فى هذه الصلة غاية فى الكياسة والترفق ، فقال مما قال فى هذا المعنى : « اذا دخلت ليلا فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمشط الشعثة ... الكيس ، الكيس ! »

معاملته لزوجاته

وانما نلخص ما أوجبه النبى على المسلمين عامة فى معاملاتهم لزوجاتهم ، وهو دون ما أوجبه على نفسه فى معاملة زوجاته بكثير

فكان يشفق أن يرينه غير باسم فى وجوههن ، ويزورهن جميعا فى الصباح والمساء ، واذا خلا بهن « كان ألين الناس ضحاكا بساما » كما قالت عائشة رضى الله عنها

ولم يجعل من هيبة النبوة سدا رادعا بينه وبين نسائه ، بل أنساهن برفقه وايناسه أنهن يخاطبن رسول الله فى بعض الاحايين . فكانت منهن من تقول له أمام أبيها : « تكلم ولا تقل الا حقا ... » ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها ، ومن تبلغ فى الاجتراء عليه ما يسمع به رجل كعمر ابن الخطاب فى شدته ، فيعجب لهم ويهم بأن يبطش بابنته حفصة لأنها تجترىء كما يجترىء الزوجات الاخريات . واذا رأى النبى غضبا كهذا من جرأة كتلك كف من غضب الأب وقال له : ما لهذا دعوناك !

وقد كان يتولى خدمة البيت معهن ، أو كما قال : « خدمتك زوجتك صدقة »

وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين احداهن وسائرهن وهو ميل قلبه : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك »

ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن بعث اليهن فتلطف فى سؤالهن : « أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ؟ » ... ليقلن عند عائشة ويأذن له فى الاقامة ببيتها . ولو انه أحل لنفسه أن يقيم حيث أقام وهو مريض لما كان فى ذلك من حرج

والمعاملة الطيبة فى الزمن الطويل خلق نادر بين الناس ، ولكنه فى حالة الرضى خلق لا يشق فهمه على كثيرين

الا أن الخلق الذى يشق فهمه على الاكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من خطر وهو المساس بالوفاء

فى هذه الخصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيب ولا أكرم من المعاملة التى أثرت عن النبى فى قصة عائشة بنت الصديق وهى أحظى نسائه لديه ، ونلخصها مما روته بلسانها اذ تقول رضى الله عنها :

« ... كان رسول الله اذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه . وأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى، ثم قفلنا من الغزوة الى أن دنونا من المدينة ، فقمت حين آذنوا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأنى ، وأقبلت الى الرجل فلمست صدرى فاذا عقدى قد انقطع ، فرجعت ألتمسه فحسبنى ابتغاؤه . وأقبل الى الرهط الذين كانوا يرحلون لى (١) فحملوا هودجى وهم يحسبون انى فيه . وكانت النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن (٢) ولم يغشهن اللحم . انما يأكلن العلقة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه اذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن

« ووجدت عقدى فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون الى

« فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت . وكان صفوان بن المعطل السلمى قد عرس من وراء الجيش فأدلج (٣) فأصبح عند منزلى فرأى سواد انسان نائم . فعرفنى حين رآنى واسترجع . فاستيقظت وخمرت وجهى بجلبابى ، ووالله ما يكلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق يقودها حتى آتينا الجيش بعدما نزلوا فى نحر الظهيرة (٤)

« فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى بن سلول

---

(١) أى يحملون الرحل على البعير
(٢) يثقلهن اللحم والشحم
(٣) سار آخر الليل
(٤) أى فى شدة الحر

واشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون فى قول أهل الافك ولا أشعر بشىء من ذلك

« ... ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى . انما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذاك يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع (١)

« ثم عدنا فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ! »

قلت : بئس ما قلت ! أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟

« قالت : أى هنتاه (٢) ! أو لم تسمعى ما قال ؟

« قلت : وماذا قال ؟

« فأخبرتنى بقول أهل الافك . فازددت مرضا الى مرضى فلما رجعت الى بيتى فدخل على رسول الله فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟ استأذنت أن آتى أبوى : أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى

« قالت أمى : يا بنية هونى عليك . فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا كثرن عليها

« قلت : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا اكتحل بنوم

« ودعا رسول الله على بن أبى طالب وأسامة بن زيد يستشيرهما فى فراق أهله . فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود ، وقال لرسول الله : هم أهلك ولا نعلم الا خيرا

« وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير . وان تسأل الجارية تصدقك

« فدعا رسول الله بريرة يسألها : هل رأيت من شىء يريبك من عائشة ؟ قالت : والذى بعثك بالحق ان رأيت عليها أمرا قد أغمصه (٣) عليها أكثر

---

(١) أماكن فى خلاء المدينة تقصد لحاجة

(٢) كأنها تنفى عليها طيبتها وقلة معرفتها بمكائد الناس

(٣) أعيبه

من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن (١) فتأكله

« ... وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى

« فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد ثم قال : أما بعد يا عائشة فانى قد بلغنى عنك كذا وكذا . فان كنت بريئة فسيبرئك الله ، وان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه . فان العبد اذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه

« فلما قضى رسول الله مقالتــه قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ! فقال : والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله

« فقلت لأمى : أجيبى عنى . فقالت كذلك . والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله

« قلت — وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن — انى والله لقد عرفت انكم سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به : فان قلت لكم انى بريئة ، والله يعلم انى بريئة ، لا تصدقونى . ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم انى بريئة ، لتصدقوننى ، وانى والله ما أجد لى ولكم مثلا الا كما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون

« ثم تحولت فاضطجعت على فراشى

« ... ... فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان (٢) فى اليوم الشاتى

« فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشة ! اما الله فقد برأك

« قالت لى أمى : قومى اليه

(١) أى الحيوان الذى يألف البيت (٢) الدر

« قلت : والله لا أقوم اليه ، ولا أحمد الا الله . هو الذى أنزل براءتى ..
وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابتـه منه وفقره . فأقسم لا ينفق عليه شيئا أبدا . فأنزل الله عز وجل : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى ... الى قوله : ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ »

« فقال أبو بكر : والله انى لأحب أن يغفر الله لى ، ورجع الى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه »

تلك هى القصة التى عرفت بقصة الافك كما روتها لنا السيدة عائشـة رضى الله عنها . وهى مسبار صادق يسبر لنا أغوار المروءة والرفق فى معاملة النبى لزوجاته حيث لا رفق ولا مروءة عند الاكثرين . فليس النبى هنا فى حالة من حالات الرضى التى تسلس الطباع ولا تستغرب معها المودة وطول الاناة ، ولكنه فى حالة من تلك الحالات التى تثير الحمية وتثير الحب وتثير النقمة وتثير فى النفس البشرية كل ساكنة تدعو الى طيب المعاملة ، فلم يكن فى هذه الحالة الا كرما خالصا بما سلك فى أمر نفسه وفى أمر أهله وفى أمر دينه ، ولم يدع لحالم من حالمى الحضارة الحديثـة مرتقى يتطلع اليه فى جميع هذه الغايات

سمع النبى حديثا يلاك بين المنافقين ويسرى الى المسلمين بل الى خاصة ذويه الأقربين : حديثا يسمعه رجل كعلى بن أبى طالب فى بره وكرم نحيزته فلا يرى بعده حرجا من الطلاق والنساء كثيرات

سمع النبى ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير بينة ولم يرفضـه بغير بينة ، وكان عليه أن يعود زوجه المريضة أو يجفوها الى حين . فعادها وبه من الرفق والانصاف ما يأبى عليه أن يفاتحها فى مرضها بما يخامر نفسـه الكريمة . وبه من الموجدة والترقب ما أبى عليه أن يقابلها بما كان يقابلها به والنفس صافية كل الصفاء . وظل يسأل عنها سؤال متعتب ينتظر أن تشفى وأن تأتيه البينة فيشتد كل الشدة أو يرحم كل الرحمة ، ولا يعجله لغط الناس أن يأخذ فى هذا الموقف الأليم بما توجبه الحمية وما توجبـه المروءة فى آن

وسأل من ينبغى أن يسأل : عليا واسامة وهما بمقام ولديه ، وبربرة الجارية التى تعرف عائشة وتخلص لسيدها كما تخلص لسيدتها ، وضرة لعائشة تنافسها وتكاد أن تضارعها فى حظوتها لديه : زينب بنت جحش التى كانت أسرع من يقول لو علمت شيئا يقال . فاستعاذت بالله وقالت : « أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت الا خيرا »

واتصل الحديث بعائشة فاستأذنته فى زيارة أهلها ، وآن له أن يفاتحها وقد وصل النبأ الى سمعها . ولم يئن له قبل ذلك وهو كاظم ما فى فؤاده قادر على كتمانه مخافة أن يؤذيها بغير حق وهى تشكو سقامها

فاتحها لتبرىء نفسها أو تستغفر الله

وغضبت غضب البرىء المشكوك فيه ، وانها لبريئة فى نظر كل منصف يفهم أن امرأة كعائشة لا تعرض نفسها لهذه الريبة أمام جيش ، وفى وضح النهار ، ولغير ضرورة ، ومع رجل من المسلمين يتقى ما يتقيه المسلم فى هذا المقام من غضب النبى وغضب المسلمين وغضب الله . فتلك خلة تترفع عنها من هى أقل من عائشة منبتا ومنزلة وخلقا وانفة ، فكيف بها فى مكانها المعلوم

الا أن النبى أراد لها البراءة أمام الخلق عامة وأمام نفسه المحبة ، حذرا أن تكون تبرئته اياها عن محبة وضعف لا عن تبين واستيثاق ، فلما قضى كل حق وانتهى به الاستيثاق الى الثقة كان قد وفى الكرم والحمية والانصاف والرحمة أجمعين

نعم وفى الرحمة حتى باللاغطين المتعجلين الذين أبدؤا وأعادوا فى ذلك الحديث المريب . وما أحد أرحم ممن يرحم المفترون على سمعة أهله وهناءة بيته وأمان سربه ، ولا يعذر الناس أحدا كما يعذرون نبيا مطاعا ينال فى عرضه فينال بالعقاب العدل من استحقوه

سماحة الكريم

ولقد علمنا من رواية السيدة عائشة كما علمنا من روايات شتى أن

عبد الله بن أبى بن سلول كان أكبر اللاغطين بحديث الافك عن سوء نية وكيد مبيت للنبى ودينه ، وكان هـذا الرجل كما تقدم فى بعض فصول هذا الكتاب بغيضا الى المسلمين متهما عندهم يتوجسـون منه ويسمونه رأس المنافقين ولا يكفون عن طلب دمه واستئذان النبى فى قتله . فما ضر النبى لو خلى بين المسلمين وبينه يحاسبونه على فريته ويحاسبونه على كيده وينقمون لعرض النبى منه ليأمنوا شره ويجعلوه عبرة لغيره ؟

واذا قيل ان عبد الله بن أبى كان من أصحاب العصبيـة التى يحسب حسابها وتتقى بوادرها فلمـاذا يقال فى مسـطح وهو مكفول أبى بكر وصنيعته الذى يأكل من ماله ؟ ما الذى أنجاه من السخط والعقاب وكفل له دوام البر والمعونة لولا سماحة النبى وسماحة أبى بكر وسماحة القرآن

على أن العصبية التى كان عبد الله بن أبى يلوذ بها لم تكن لتحميه عقاب النبى لو أراده بعقاب ولو كان أصرم عقاب . فما من عصبية هى أقرب الى رحم الرجل وأولى بالذود عنه من ولده المشهور ببره . وقد أسلفنـا أن ولد عبد الله قد تطوع لقتله يوم قيل له أن النبى يهدر دمه ويقضى بموته انما هى سماحة الكريم ..

انما هى السماحـة التى شـملت مسطحا كما شملت كبير المنافقين ، وخرجت من حديث الافك كله بالعفو عن جميع المسيئين مخلصين فى الرأى وغير مخلصين ، وهى التى سبرت غورا فى قصة هذا الحديث فتكشفت عن أطيب معاملة للزوجات فى أحرج الحالات ، وتلك هى المعاملة الطيبة فى مثلها الاعلى ، معاملة لا تتبدل بعد أيام وشهور بل تطول مدى السنين ، وتطول مدى السنين مع نساء مختلفات لا مع امرأة واحدة ، وتطول فى جميـع الحالات ومنهـا حالة الألم البالغ ولا تنحصر فى حـالة الرضى والطمأنينة . وأقل من ذلك أمنية يتمناها الحالمون بالوئام بين الازواج فى العصر الذى وصفوه بعصر المرأة ، لفرط ما أطنب فيه المطنبون من اكبـار شأنها والدعوة الى انصافها

تعدد الزوجات

هنا يعرض لنا الكلام عن تعدد زوجات النبى وهو الهدف الثانى الذى يرميه المشهرون بالاسلام فيكثرون من رميه كلما تكلموا عن أخلاق محمد عليه السلام وذكروا منها ما يزعمونه منافيا لشمائل النبوة ، مخالفا لما ينبغى أن يتصف به هداة الأرواح

السيف والمرأة !

كأنهم يريدون أن يجمعوا على النبى بين الاستسلام للغضب والاستسلام للهوى ، وكلاهما بعيد من صفات الأنبياء

أما السيف فقد أسلفنا الكلام فيه

أما المرأة فالظنة فيها أضعف من الظنة فى السيف على ما نراه ، لأن الاستسلام للشهوة آخر شىء يخطر على بال الرجل المحقق ــ مسلما كان أو غير مسلم ــ حين يبحث فى تعدد زوجات النبى ، وفيما يدل عليه ذلك التعدد ، وفيما اقتضاه

قال لنا بعض المستشرقين أن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية

قلنا انك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية undersexed لأنه لم يتزوج قط. فلا ينبغى أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية oversexed لأنه جمع بين تسع نساء

ونحن قبل كل شىء لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها . هذا سواء الفطرة لا عيب فيه ، وما من فطرة هى أعمق فى طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين والتقاء الذكر والأنثى ، فهى الغريزة التى تلهم الحى فى كل طبقة من طبقات الحياة ما لاتلهمه غريزة أخرى . أرأيت الى السمك وهو يعبر الماء الملح فى موسمه المعلوم فيطوى ألوفا من الفراسخ ليصل الى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه ؟ أرأيت الى العصفور وهو يبنى عشه ويعود من هجرته الى وطنه ؟ أرأيت الى الزهر وهو يتفتح ليغرى الطير والنحل بنقل لقاحه ؟

أرأيت الى سنة الحياة فى كل طبقة من طبقات الأحياء ؟ ما هى سنتها ان لم تكن هى سنة الألفة بين الجنسين ؟ وأين يكون سواء الفطرة ان لم يكن على هذا السواء ؟

فحب المرأة لا معابة فيه

هذا هو سواء الفطرة لا مراء

وانما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه ، وحتى يشغل المرء عن غرضه ، وحتى يكلفه شططا فى طلابه . فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور فى جميع الطباع

فمن الذى يعلم ما صنع النبى فى حياته ثم يقع فى روعه ان المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير ؟

من من بناة التاريخ قد بنى فى حياته وبعد مماته تاريخا أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية والدول الاسلامية ؟

ومن ذا الذى يقول ان هذا عمل رجل مشغول ؟

عم شغلته المرأة ؟ ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو محمد فى مسعاه ؟

فان كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ويعطى المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب . ورسالة محمد اذن هى الرسالة التى يتلقاها أناس خلقوا للحياة ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها . فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة فيما يخاطب به عامة الناس فى عامة العصور

وأعجب شىء أن يقال عن النبى أنه استسلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن فى الطلاق لأنهن طلبن اليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها

فقد شكون — على فخرهن بالانتماء اليه — انهن لا يجدن نصيبهن من النفقة والزينة ، واجتمعت كلمتهن على الشكوى واشتددن فيها حتى وجم النبى وهم بتسريحهن ، أو تخييرهن بين الصبر على معيشتهن والتسريح

وذهب اليه أبو بكر يوما « يستأذن عليه فوجد الناس جلوسا لايؤذن لأحد منهم . ثم دخل أبو بكر وعمر من بعده فوجدا النبى جالسا وحوله نساؤه واجما ساكتا . فأراد أبو بكر أن يقول شيئا يسرى عنه ، فقال : « يارسول الله لو رأيت بنت خارجة ! سألتنى النفقة فقمت اليها فوجأت عنقها » فضحك رسول الله وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة !.. فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها ويقولان : « تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟ »

فقلن : « والله لا نسأل رسول الله شيئا أبدا ليس عنده » . ثم اعتزلهن الرسول شهرا أو تسعة وعشرين يوما فنزلت بعدها الآية التى فيها التخيير وهى : « يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما »

فبدأ الرسول بعائشة فقال لها : « يا عائشة ! انى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك .. »

قالت : « وما هو يا رسول الله ؟ » فتلا عليها الآية ..

قالت : « أفيك يا رسول الله أستشير أبوى ؟.. بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .. » ثم خير نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة ، وقنعن بما هن فيه من معيشة كان كثير من زوجات المسلمين يظفرن بما هو أنعم منها

علام يدل هذا ؟

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ؟

أما كان يسيرا عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين ، وهم موقنون أن ارادة الرسول من ارادة الله ؟

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنســاء حتى يقــال أنه كان يفرط فى ميله الى النساء ؟ هل كلفه أن يخالف ما يحمد من ســننه أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه ؟

لم يكلفه شيئا من ذلك ، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها ، ولم نر هنا رجلا تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهرون ، بل رأينا رجلا يغلب تلك الملذات فى طعامه ومعيشته وفى ميــله الى نسائه . فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه ، ولو كانت هذه الضريبة بسطة فى العيش قد ينالها أصغر المسلمين ، ولا شك فى قدرة النبى عليها لو أراد

رجل الجد والرصانة

وهكذا نبحث عن الرجل الذى توهمه المشهرون من مؤرخى أوربا فلا نرى الا صورة من أعجب الصور التى تقع فى وهم واهم

نرى رجلا كان يستطيــع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هــذا بمعيشة الفقراء ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه !

ونرى رجلا تألبت عليه نساؤه لأنه لا يعطيهن الزينــة التى يتحلين بها لعينيه ثم يقال أنه رجل غلبته لذات حسه !

ونرى رجلا آثر معيشة الكفاف والقناعة على ارضاء نسائه بالتوســعة التى كانت فى وسعه ثم يقال أنه رجل غلبته لذات حسه !

ذلك كلام لو شاء المشهرون أن يرسلوه كلاما مضحكا مستغربا لأفلحوا فيما قالوه أحسن فلاح . أو لعله أقبح فلاح !

ويزيد فى غرابته أن الرجل الذى توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولا قبل زواجه ولا بعد زواجه فتخبط فيه الظنون ذلك الخبط الذريع

فمحمد كان معروف الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة

كان معروفا من صباه الى كهولته فلم يعرف عنه أنه اســتسلم للذات

الحس فى ريعان صباه ، ولم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لايباح ... بل عرف بالطهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة . وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شانئيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات : تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذى كان من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم الى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات ... كلا .. لم يقل أحد هذا قط من شانئيه وهم عديد لا يحصى . ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل

ولما بنى بأولى زوجاته ـ خديجة ـ لم تكن لذات الحس هى التى سيطرت على هذا الزواج . لأنه بنى بها وهى فى نحو الأربعين وهو فى نحو الخامسة والعشرين ، ونيف على الخمسين وأوتى الفتح المبين وليس له من زوجة غيرها ولا من رغبة فى الزواج بأخرى

ولم يكن وفاؤه لها بقية حياته وفاء المرء للذات حس أو ذكرى متاع جميل . لأنه فضلها على عائشة فى صباها وهى أحب نسائه اليه ، وكانت عائشة تغار منها فى قبرها فلم يكتمها قط أنه يفضلها عليها

قالت له مرة : هل كانت الا عجوزا بدلك الله خيرا منها ، فقال لها مغضبا : « لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها . آمنت بى اذ كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء »

فلهذا أحب خديجة ووفى لها وفضلها ولم يمح ذكراها من نفسه قط من أعقبتها من الزوجات الفتيات : وفاء قلب وليست لذات حس ولا ذكرى متاع جميل

أسباب تعدد زوجاته

ولو كانت لذات الحس هى التى سيطرت على زواج النبى بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بارضاء هذه الملذات أن يجمع النبى اليه تسعا من الفتيات الأبكار اللائى اشتهرن بفتنة الجمال فى مكة والمدينة والجزيرة

العربية ، فيسرعن اليه راضيات فخورات ، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفخر بهذه المصاهرة التى لا تعلوها مصاهرة

لكنه لم يتزوج بكرا قط غير عائشة رضى الله عنها ، ولم يكن زواجه بها مقصودا فى بداية الأمر حتى رغبته فيه خولة بنت حكيم التى عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة

قالت عائشة رضى الله عنها : « لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون للنبى : « أى رسول الله ! ألا تزوج ؟ »

قال : « من ؟ »

قالت : « ان شئت بكرا وان شئت ثيبا ؟ »

قال : « فمن البكر ؟ »

قالت : « بنت أحب الناس اليك عائشة بنت أبى بكر »

قال : « فمن الثيب ؟ »

قالت : « سودة بنت زمعة آمنت بك واتبعتك »

ثم كانت سودة هى أولى النساء اللاتى بنى بهن بعد وفاة خديجة . وكان زوجها الأول ــ ابن عمها ــ قد توفى بعد رجوعه من الهجرة الى الحبشة . وكانت هى من أسبق النساء الى الاسلام فآمنت وهجرت أهلها ونجا بها زوجها الى الحبشة فرارا من اعنات المشركين له ولها . فلما مات لم يبق لها الا أن تعود الى أهلها فتصبأ وتؤذى ، أو تتزوج بغير كفؤ أو بكفؤ لا يريدها . فضمها النبى اليه حماية لها وتأليفا لأعدائه من آلها . وكان غير هذا الزواج أولى به لو نظر الى لذات حس ومال الى متاع

وكانت للنبى زوجة أخرى وسمت بالوضاءة والفتاء وهى زينب بنت جحش ابنة عمته عليه السلام التى زوجها زيدا بن حارثة بأمره وعلى غير رضى منها ، لأنها أنفت ــ وهى ما هى فى الحسب والقرابة من رسول الله ــ ان يتزوجها غلام عتيق

هذه أيضا لم يكن « للذات الحس » المزعومة سلطان فى بناء النبى بها بعد تطليق زيد اياها وتعذر التوفيق بينهما ، ولو كان للذات الحس سلطان

فى هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبى أن يتزوجها ابتداء ولا يروضها على قبول زيد وهى تأباه . فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ولا يفاجئه من حسنها شيء كان يجهله يوم عرض عليها زيدا وشدد عليها فى قبوله . فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من اعراضها عنه وترفعها عليه واغلاظها القول له كان زواج النبى بها « حلا لمشكلة » بيتية بين ربيب فى منزلة الابن وابنة عمة أطاعته فى زواج لم يقرن بالتوفيق

أما سائر زوجاته عليه السلام فما من واحدة منهن — رضى الله عنهن — الا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة

فأم سلمة كانت كهلة مسنة يوم خطبها ، كما قالت له معتذرة اليه لاعفائه من تكليف نفسه أن يتزوجها ، جبرا لخاطرها بعد موت زوجها عبد الله المخزومى من جرح أصابه فى غزوة أحد . ولما برح بها الحزن لوفاته واساها رسول الله قائلا : « سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك وأن يخلفك خيرا »

فقالت : « ومن يكون خيرا من أبى سلمة ؟ » فأوجب على نفسه خطبتها لأنها تعلم أنه خير من أبى سلمة ، ولأنه يعلم أن أبا بكر وعمر خطباها فترفقت فى الاعتذار ، وهما أعظم المسلمين قدرا بعد النبى عليه السلام

وجويرية بنت الحارث سيد قومه كانت احدى السبايا فى غزوة بنى المصطلق فتزوجها النبى ليعتقها ويحض المسلمين على عتق أسراهم وسباياهم تفريجا عنهم وتألفا لقلوبهم ، فأسلموا جميعا وحسن اسلامهم ، وخيرها أبوها بين العودة اليه والبقاء فى حرم رسول الله فاختارت البقاء فى حرم رسول الله

وحفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها على أبى بكر فسكت وعلى عثمان فسكت . وبث عمر أسفه للنبى فلم يكن للنبى عليه السلام أن يضن على وليه وصديقه بالمصاهرة التى شرف بها أبا بكر من قبله ، وقال : يتزوج حفصة من هو خير من أبى بكر وعثمان

ورملة بنت أبى سفيان تركت أباها لتسلم وتركت وطنها لتهاجر مع زوجها الى الحبشة ، ثم تنصر زوجها وفارقها وهى غريبة هناك بغير عائل . فأرسل النبى الى النجاشى فى طلبها لينقذها من ضياع الغربة وضياع الأهل وضياع القرين . فكانت النجدة الانسانية باعث هذا الزواج ولم يكن له باعث من المتعة والاستزادة من النساء ، وكان للنبى مقصد جليل من وراء هذا الزواج الذى لم يفكر فيه حتى ألجأته النجدة الى التفكير فيه ، وهو أن يصل بينه وبين أبى سفيان بآصرة النسب ، عسى أن يهديه ذلك الى الدين ، بما يعطف من قلبه ويرضى من كبريائه

وكان اعزاز من ذلوا بعد عزة : سنة النبى عليه السلام فى معاملة جميع الناس ولا سيما النساء اللاتى تنكسر قلوبهن فى الذل بعد فقد الحماة والأقرباء ، ولهذا خير صفية الاسرائيلية سيدة بنى قريظة بين أن يلحقها بأهلها وأن يعتقها ويتزوج بها . فاختارت الزواج منه عليه السلام . وآية الآيات فى رعاية الشعور الانسانى انه عليه السلام أنب صفيه بلالا لأنه مر بها وبابنة عمها على قتلى اليهود . فقال له مغضبا : « أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما ؟ » واحتقرتها زينب فلقبتها يوما باليهودية فهجرها شهرا لايكلمها ليأخذ بناصر هذه الغريبة ويدفع عنها الضيم

***

تتكشف لنا مراجعة الحياة الزوجية لمحمد عليه السلام عن هذه الأسباب وشبيهاتها من دواعى اختياره لنسائه واستجماعه لهذا العدد من الزوجات فى حين واحد

ولا حرج — كما أسلفنا — على رجل قويم الفطرة أن يلتمس المتعة فى زواجه . ولكن الذى حدث فعلا أن المتعة لم تكن قط مقدمة فى الاعتبار عند نظر النبى فى اختيار واحدة من زوجاته قبل الدعوة أو بعدها ، وفى ابان الشباب أو بعد تجاوز الكهولة

وآخر صورة يتصورها المنصف هنا هى صورة رجل فرغ للذاته وجلس

ينتقى واحدة بعد واحـدة من الحسـان على حسب ما يرجوه عندها من متاع . فانما كان الاختيار كله على حسب حاجتهن الى الايواء الشريف أو على حسب المصلحة الكبرى التى تقضى باتصال الرحم بينه وبين سـادات العرب وأساطين الجزيرة من أصـدقائه وأعدائه ، ولا استثناء فى هـذه الخصلة لزوجة واحدة بين جميـع زوجاته حتى التى بنى بها فتـاة بكرا موسومة بالجمال ، وهى السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه

الا أن المشهرين المتقولين نسـوا كل حقيقة من حقائق هـذه الحياة الزوجية التى سجلت لنا بأدق تفصيـلاتها ولم يذكروا الا شيئا واحـدا حرفوه عن معناه ودلالتـه ، ليفتروا على النبى ما طاب لهم أن يفتروه ، وذاك انه جمع فى وقت واحد بين تسع زوجات

نسوا انه اتسم بالطهر والعفة فى شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق ، فى غير مشقة عندهم ولا معابة

ونسوا انه بقى الى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف فى طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور اليه بين الأسر وبين الفتيات

ونسوا انه لما تزوج فى تلك السن كان زواجه بسيدة فى الاربعين اكتفى بها الى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين

ونسوا انه اختار احسابا فى حاجة الى التألف أو الرعاية ولم يختر جمالا مطلوبا للمتاع

ونسوا أن الرجل الذى وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع فى بعض أيامه من خبز الشعير ، ولم يجاوز حياة القناعة قط لارضاء نسائه وارضاء نفسه ، ولو شاء لما كلفه ارضاء نفسه وارضاؤهن غير القليل بالقياس الى ما فى يديه

نسوا كل هذا وهو ثابت فى التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتى جمع

بينهن عليه السلام . فلماذا نسوه ؟

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة ، وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الاغضاء عنها ، لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها

الوجهة الخلقية

ونستطرد الى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية فلا نطيل فيه ، لأننا نقصر هذا الكتاب على عبقرية محمد وما له اتصال بجوانب هذه العبقرية فى تعدد مناحيها ، ولم نرد به أن نتناول حكمة الشريعة الاسلامية فى تفصيلها ولا مسوغات الأصول الدينية على اختلافها

فأوجز ما نقوله فى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية أن النبى عليه السلام لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها أو مباحا يختاره من يختاره وله مندوحة عنه . وانما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها الأمة فى بعض الأحوال لأنها خير من ضرورات . ولن ينكر هذا الا متعنت يصدم الحقائق ويتجاهل المحسوس الماثل للعيان

ففى حياة محمد الخاصة لا ينكر أحد أن بناءه بنسائه قد كان خيرا من الاخلاء بينهن وبين التأيم والمذلة والرجعة الى الكفر والضلالة ، وكان خيرا من قطع تلك الآصرة التى وصلت بينه وبين البيوت والعشائر فكان لها ما كان من فضل فى نفع الدين والمتدينين به ، وهى ضرورة يلجأ الى الاعتراف بها كل مسئول عن شئون أمة بل أمم تمارس الحياة الدنيا ، وكل امام عليم بطبائع الناس

أما الضرورة الاجتماعية العامة فقد اعترفت بها الشرائع المدنية الحديثة جميعا ثم تحللت منها باباحة الزنى وعلاج مشكلة الزواج بحل خارج عن نطاق الزواج أو خارج عن نطاق البيت والأسرة . ولو اهتدت هذه الشرائع المدنية الى حل خير من هذا لجاز لها أن تنكر تعدد الزوجات ، وتنكر أنه ضرورة أكرم من ضرورات

فلا شك أن الجمع بين المرأة العقيم أو المرأة المريضة وبين غيرها أكرم لها وللمجتمع من نبذها فى معترك هذه الدنيا الضروس بغير ولد وبغير زوج وبغير عاصم ، ثم هو أكرم للزوج نفسه وهو كائن حى يريد أن يصل ما بينه وبين الحياة بذرية صالحة هى الغرض الاكبر من كل زواج ، ولولاها لانتقض فى المجتمع الانسانى أساس كل زواج

ولا شك أن الجمع بين المرأة المزهود فيها وبين زوجة أخرى أكرم لها وأصلح من الجمع بينها وبين خليلة أو عدة خليلات

ولا شك أن تسهيل الزواج وبخاصة فى أوقات الحروب التى ينقص فيها الرجال أكرم للمجتمع الانسانى وأصلح من تسهيل العلاقات الاخرى التى لا تنفع النوع ولا تنفع الاخلاق ، ولا ترفع مكانة المرأة فى عصمة رجل أو فى متناول كثير من الرجال

هذا شىء جائز

بل هذا شىء أكثر من جائز . لأنه واقع لا محيد عنه ولا حيلة فيه . وغير ملوم من يواجهه بحل أكرم من حلول شتى . بل اللوم عليه أن ينظر فى شئون العالم ثم يغمض عينيه عن حقائقه التى تصدم كل عين

***

ومن السهل — على من أراد — أن يسوس العالم فى خياله بالفضائل التى تروقه وترضيه ! وليس من السهل عليه أن يخلق العالم الذى يساس له ويرضى بما ارتضاه . وقد علم هذا كل رجل واجهته مشكلة واحدة من المشكلات التى واجهت محمدا بادىء الرأى على غير مثال سابق يحتذيه ، الا ما ألهمه الله

ماذا صنع نابليون فى عصرنا الحديث ؟

وانما نضرب المثل بنابليون لأنه حضر انقلابا فى الاطوار والعادات يشبه نشأة الدين فى أيام الدعوة المحمدية ونعنى به الثورة الفرنسية ، وحضر انحدارا فى الاخلاق والآداب يشبه الانحدار الذى أصيب به العرب فى أواخر عهد الجاهلية ، وأسس دولة ، ونظر فى سن قانون ،

وحاول ضروبا من الاصلاح

نابليون قد طلق امرأته وأكره أحبار المسيحية على قبول هذا الطلاق ، وقد اشتهرت له علاقات بخليلات متعددات ، غير الخليلات المجهولات

ونابليون يقول عن المرأة : « لقد صنعت كل ما وسعني أن أصنع لتحسين حال أولئك المساكين الأبرياء أبناء الزنى . الا أنك لا تستطيع أن تصنع لهم الشيء الكثير دون مساس بقواعد الزواج . والا أحجم الناس عن الزواج الا القليل »

« ولقد كان للرجل فى العهد القديم سريات الى جانب الزوجات ، ولم يكن أبناء الزنى محتقرين بين الناس احتقارهم اليوم ... انه لمن المضحك أن يحظر على الرجل الزواج بأكثر من واحدة . فتحمل هذه الزوجة الواحدة ، وكأن الرجل فى أثناء حملها أعزب أو عقيم

« واليوم لا سريات للرجال ولكنهم يعاشرون الخليلات وهن أقدر على التبديد والافساد

« انهم فى فرنسا يخولون النساء فوق حقهن من التعظيم . وانما الواجب ألا ينظر اليهن كأنهن مساويات للرجال . فما هن فى الحقيقة الا آلات لاخراج الاطفال

« وقد تمردن فى ابان الثورة وعقدن الجماعات لأنفسهن وبدا لهن أن يؤلفن فرقا منهن فى الجيش !

« وكان لابد من صدهن . لأن المجتمع الانسانى عرضة للخلل والفوضى اذا ترك النساء حالة الاعتماد على الرجال وهى مكانهن الحق فى الحياة . نعم ان المجتمع لوشيك اذن أن يتمزق بددا بغير انتهاء

« وعلى جنس من الجنسين أن يخضع للآخر لا محالة ... فاذا نشبت الحرب بينهما ، فلن تكون كحرب الأغنياء والفقراء أو حرب البيض والسود !

« الا وان الطلاق لأضر بالمرأة دون مراء . فالرجل الذى يجمع بين زوجات لا يبدو عليه من ذلك أثر كالاثر الذى يبدو على المرأة بعد التزوج

بعدة رجال . انها تضمحل اذن كل الاضمحلال »

كذلك اعترف نابليون بالضرورات الزوجية فى العصر الحديث . فكيف اعترف بها « لنين » فى الثورة الكبرى بعد الثورة الفرنسية ؟

حل مشكلة الزواج بحل رابطة الزواج . فلا رابطة بين الزوجين أوثق من رابطة الرفيقين فى الفندق أو الطريق . وليس أعجب ممن جعل الزواج شريعة ملائكة الا الذى جعله على هذا النحو شريعة عجماوات

عقوبة الزوجات

ولا نختم هذا الفصل عن النبى فى حياته الزوجية قبل أن نعرض لعقوبة الزوجات فى الاسلام وللعقوبة التى اختارها عليه السلام . لأن عقوبة الرجل لامرأته فى حالة الغضب كمحاسنته لها فى حالة الرضى ــ كلاهما ميزان صادق لمكانتها عنده ، ومكانة المرأة عامة فى تقديره

والقرآن ينص على العقوبات السائغة فى حالة النشوز وهى العظة والهجر فى المضاجع والضرب ، والتسريح باحسان : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن : فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » . « ... واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ... »

والنبى عليه السلام لم يطلق زوجة من زوجاته دخل بها وعاشرها ولم يضرب قط واحدة منهن ، ولم يرو عنه قط أنه ضرب أو نهر خادما فضلا عن زوجة ، بل روى عنه ما ينفى ذلك ممن عاشروه ولازموه

بل كان عليه السلام يكره ضرب النساء ويعيبه كما قال : « أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره ! »

فما نص القرآن عليه من عقوبة الضرب فانما نص عليه لعلاج النشوز الذى لا يستقيم بغيره ، وقيده المفسرون بشروط تمنع الايذاء وتحصره فى القدر الذى يستقيم عليه الجزاء

فغاية ما يفهم من ذكر الضرب بين العقوبات أن بعض النساء يتأدبن به ولا يتأدبن بغيره ، وقد يعلم الكثيرون أن هؤلاء النساء لايكرهنه ولا يسترذلنه ، وليس من الضرورى ان يكن من أولئك العصبيات المريضات اللائى يشتهين الضرب كما يشتهى بعض المرضى ألوان العذاب

انما العقوبة التى آثرها النبى عليه السلام هى الهجر الطويل أوالقصير، بعد العظة والعتاب الجميل

والهجر – ولا سيما الهجر فى المضاجع – عقوبة نفسية بالغة وليست كما يسبق الى بعضهم عقوبة حسية تؤلم المرأة لما يفوتها من سرور ومتعة فان فوات السرور والمتعة أياما لايؤلم المرأة هذا الايلام الذى يجعل الهجر فى المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق

قال الاستاذ رشيد رضا رحمه الله فى كتابه نداء للجنس اللطيف : « أما الهجر فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها ويشق عليها هجره اياها ، ولا يتحقق هذا بهجر المضجع نفسه وهو الفراش ، ولا بهجر الحجرة التى يكون فيها الاضطجاع ، وانما يتحقق بهجر الفراش نفسه . وتعمد هجر الفراش أو الحجرة زيادة فى العقوبة لم يأذن بها الله تعالى . وربما يكون سببا لزيادة الجفوة . وفى الهجر فى المضجع نفسه معنى لا يتحقق بهجر المضجع أو البيت الذى هو فيه ، لأن الاجتماع فى المضجع هو الذى يهيج شعور الزوجية فتسكن نفس كل من الزوجين الى الآخر ويزول اضطرابها الذى أثارته الحوادث قبل ذلك . فاذا هجر الرجل المرأة وأعرض عنها فى هذه الحالة رجى أن يدعوها ذلك الشعور والسكون النفسى الى سؤاله عن السبب ويهبط بها من نشز المخالفة الى صف الموافقة ، وكأنى بالقارىء وقد جزم بأن هذا هو المراد ، وان كان مثلى لم يره لأحد من الأموات ولا الأحياء »

والذى نراه أن الاستاذ رحمه الله قد أخطأه المراد الدقيق من هذه العقوبة النفسية . وان الحكمة فى ايثارها أعمق جدا من ظاهر الأمر كما رآه الاستاذ

فأبلغ العقوبات ولا ريب هى العقـوبة التى تمس الانسان فى غروره وتشككه فى صميم كيانه : فى المزية التى يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه

والمرأة تعلم أنها ضـعيفة الى جانب الرجل ، ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت أنها فاتنة له . وأنها غالبته بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق اليها ورغبة فيها

فليكن له ما شاء من قوة ، فلها ما تشاء من سحر وفتنة وعزاؤها الاكبر عن ضعفها أن فتنتها لا تقاوم ، وحسبها أنها لا « تقاوم » بديلا من القوة والضلاعة فى الاجساد والعقول :

فاذا قاربت الرجل مضاجعة له وهى فى أشد حالاتها اغراء بالفتنة ثم لم يبالها ولم يؤخذ بسحرها فما الذى يقع فى وقرها وهى تهجس بما تهجس به فى صدرها ؟

أفوات سرور ؟ أحنين الى السؤال والمعاتبة ؟ كلا . بل يقع فى وقرها أن تشك فى صميم أنوثتها وأن ترى الرجـل فى أقدر حالاته جديرا بهيبتها واذعانها ، وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى بالفتنة ولا بغلبة الرغبة . فهو مالك أمره الى جانبهـا وهى الى جانبه لا تملك شيئا الا أن تثوب الى التسليم ، وتفر من هوان سحرها فى نظرها قبل فرارها من هوان سحرها فى نظر مضاجعها

فهذا تأديب نفس وليس بتأديب جسـد ، بل هذا هو الصراع الذى تتجرد فيه الأنثى من كل سـلاح ، لأنها جربت أمضى سـلاح فى يديها فارتدت بعده الى الهزيمة التى لا تكابر نفسها فيها . فانما تكابر ضـعفها حين تلوذ بفتنتها . فاذا لاذت بها فخذلتها فلن يبقى لها ما تلوذ به بعد ذلك

***

وهنا حكمة العقوبة البالغة التى لا تقاس بفوات متعة ولا باغتنام فرصة للحديث والمعاتبة

انما العقوبة ابطال العصيان ، ولن يبطل العصيان بشيء كما يبطل باحساس العاصى غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه . والهجر فى المضاجع هو مثابة الرجوع الى هذا الاحساس

على أن عقاب النبى لزوجاته كان من الندرة بحيث لا يذكر لولا ما تعود المسلمون من ذكر كل كبيرة وصغيرة فى حياته الخاصة والعامة على السواء ، وهذا مع طول العشرة وتعدد الزوجات وكثرة الحوادث الجسام وقلة النسل الذى يصل المقطوع ويرأب المصدوع

وكان معظم عقابه أشبه بعقاب نبى لمسلمات منه بعقاب زوج لزوجات . وهو فى حالتى عقابه واحسانه انسان على أكمل ما يكون الانسان من رحمة وكيس وانصاف

واذا حارت الأدلة فى قوام تلك الحياة الزوجية فالدليل الذى لا يحار أن ينقضى نحو أربعين سنة عليها وهى على ذلك الصفاء والولاء الذى لم يعرف مثله فى علاقات الرجال والنساء : هذه حياة زوجية لا تقوم على الحس والمتعة ، ولن تدوم ذلك الدوام لو كان لها قوام غير مودة القلوب وراحة النفوس وحب الخير ومبادلة العطف والتعظيم

الأبُ

الابوة الروحية والابوة النوعية

حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التى دقت عن الفهم وحارت فى تعليلها عقول الاساطين من أهل العلم والحكمة

وهو ولا ريب يجرى على قانون مطرد فى جميع طبقات الاحياء وان كنا نحن لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ، ولا نزيد عن استقصاء بعض الملاحظات التى تقارب الحقيقة ، أو هى أقرب ما نستطيع الوصول اليه

وأهم هذه الملاحظات التقريبية أنه يجرى على سنة المكافآة والتعويض فى معظم حالاته . فيقابل النقص فى جانب بالزيادة فى جانب آخر ، ويقابل القصور فى مزية من المزايا بالاتقان فى مزية أخرى

فالأحيـاء السفلى عرضـة للعطب الكثير فى طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا أن الأحياء السفلى ترسـل ذرياتها بالالوف وألوف الالوف . فيبقى منها القليل الكافى لدوام النوع بعد فناء الكثير

والأحياء العليا يقل عدد المولود منها فى البطن الواحد . فيقابل هـذا أن تطول حضانتها والعناية بها ، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة فى الأحياء السفلى

ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هى الوسيلة الوحيـدة التى يستطيعهـا الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه . فاذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجوز ذلك على نسله وينتقص من قسمته فى أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد فى صورة من الصور ، فاذا أداها فى صورة أعفى منها فى الصور الاخرى . أو كأنما هى مواهب وأرزاق لا يستوفيها الفرد الواحد الا بثمن غال يحسب عليه ، ويؤدى حسابه للنوع على نحو من الأنحاء

والانسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر فى تجديد النسل وزيادة عدده

فهل يجوز لنا أن نقول أن العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم باصلاح شئون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟

ان قلنا ذلك فانما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا اليها . ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه ، فغاية مبلغها عندنا أنها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضى بنا الى الجزم أو الى التغليب

فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء معظمون لا شك فى سيرتهم من هذه الناحية ، كعيسى عليه السلام

وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها اناث ، أو رزقوا ذرية من الاناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ولم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة

وتواريخ العظماء فى جميع نواحى العظمة ، وفى جميع الامم ، وفى جميع العصور ، حافلة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعة : يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ، ويدخل فيهم القادة العسكريون والسياسيون . ولا يصعب على أحد أن يدير بصره الى فترة من الزمن فى بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك فى نفر من عظمائه ومشهوريه ، وحسبنا فى مصر أسماء جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الله نديم ، ومصطفى كامل ، ومصطفى فهمى ، ومحمود سامى البارودى ، وحافظ ابراهيم

فاذا جاز لنا أن نقف عند تلك الملاحظة وأن نتأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم أن اصلاح شئون النوع الانسانى ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية فى بعض الاحوال — فأين ترانا نجد تلك الضريبة فى أرفع حالة وأغلى قيمة ان لم نجدها فى رسالة نبوية تتناول الاجيال بعد الاجيال وتتناول

الملايين فى كل جيل ؟.. وأى أبوة انسانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغنى أبوة النبى الذى يتكفل بتربية الأرواح فى أمته ، وفى أمم لا يلقاها فى زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه الى أقصى الزمان ؟

نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤ فى الجانبين جديرا بالملاحظة والاعتبار

ألا ما أثقل ثمن الاصلاح !

ألا ما أحق المصلحين بالتمجيد وحسن الجزاء

فمحمد الأب كان أصلح الآباء ، ثم فجع فى بنيه فجيعة لا يدارى فيها ألم الانسان الا صبر الأنبياء

ومن الناس من لا يكون صديقا صالحا ولا سيدا صالحا ولا زوجا صالحا ولكنه أب صالح بر ببنيه

لأن الرحم بين الآباء والأبناء أدنى الأرحام الى المودة وأحراها بتحريك الشفقة فيمن لا يشفق على أحد

فكيف تكون الأبوة فى نفس صلحت للصداقة وصلحت للسيادة وصلحت للزوجية لأنها تصلح للعطف الذى يعم القريب والغريب ، ويشمل القوى والضعيف ؟

ذلك أب نعلم كيف يفرح بأبنائه

ونعلم كيف نحزن حين يفجع فى أولئك الأبناء

***

ومن الراجح أن العطف الأبوى لم يتمثل قط فى مولد أحد من أبناء محمد عليه السلام كما تمثل فى مولد ابنه الذى سماه باسم جده الأكبر أملا فى أن يصبح بعده خليفته الأكبر . ولعل العطف الأبوى قد تمثل فى تشييع هذا الطفل الصغير أشد من تمثله فى استقباله يوم ميلاده

كانت أسباب كبيرة توحى الى قلب محمد العظيم شوقه الطويل الى استقبال ذلك الوليد

كان منها أن محمدا عربى يحرص على العقب من بعده كحرص كل رجل

من أبناء القبائل وأصحاب العصبية : هم فخورون بالنسب فخورون بالعقب ، يحفظون سيرة السلف ويتوقون الى استبقاء الخلف على نحو لا يعهده الحضريون وان كان حب الذرية فطرة مركبة فى جميع الطباع

ومحمد كان يحب التكاثر لنفسه ويحبه لأمته ويوصى المسلمين أن يستكثروا من النسل ما استطاعوا ليفاخر بهم الأمم وفرة وعزة . فاشتياقه الى العقب من الذكور خليقة عربية تقترن بالخليقة الانسانية والخليقة النبوية ، فتزداد قوة على قوتها التى ركبت فى جميع الطباع

وكان من أسباب هذا الشوق القوى طول العهد بالأبناء بعد من ولدتهم له السيدة خديجة رضى الله عنها ، وشماتة أناس من شانئيه سماه بعضهم بالأبتر لانقطاع معظم نسله : وفى ذلك نزول الآية الكريمة : « ان شانئك هو الأبتر »

فقد مضى نيف وعشرون سنة لم تلد له فى خلالها زوجة من زوجاته . ومات فى هذه الفترة كل أولاده ما عدا فاطمة رضى الله عنها التى ماتت بعده بقليل : مات القاسم ، والطاهر طفلين ، وماتت زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، بعد أن تزوجن ، ولم يتعوض من فقدهن ما يعزيه بعض العزاء

فجيعة تضاعف الشوق الى الوليد المأمول

وطول انتظار يضاعف الحب له كما يضاعف الشوق اليه

ولسنا ندرى لم طالت الفترة التى مضت على أزواج النبى جميعا بغير عقب . ولكنا لا نستبعد تعليلها باجتماع المصادفات التى لا يندر أن تجتمع فى أمثال هذه الأحوال . فعائشة البكر التى لم يتزوج النبى بكرا غيرها قد مات عنها عليه السلام وهى دون العشرين ، وهى سن قد تبلغها المرأة ولا تلد ، وان كانت ولودا فيما بعدها

أما أزواجه الأخريات اللائى تزوجن قبله فلا نعلم من أخبارهن أنهن أعقبن لأزواجهن الأولين خلفا غير رملة أم حبيبة وهند بنت أمية المخزومية ، وهذه كانت مسنة يوم بنى بها النبى عليه السلام ، وفى عمر لا يستغرب فيه امتناع الولادة

فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبى ولا لزوج قبله ، واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجيبة المعضلة التى يصعب تعليلها اذا تذكرنا أن النبى قد توخى فى اختيارهن تلك الأغراض العامة التى أجملناها فى الفصل السابق ولم يتحر منها النسل خاصة : وهى الايواء الشريف والمصاهرة . وبعضهن — بل معظمهن — قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء الهجرة البعيدة ، ما يعقم الولود

فاذا أضفنا الى ذلك معيشة الكفاف وضريبة العظمة النبوية التى أشرنا اليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال النبى فيما بين الخمسين والستين بتعزيز الدين وقمع الفتن ودرء الأخطار — لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر العصى على التعليل

حزن الابوة

طال اشتياق النبى الى الوليد المأمول ، وتجدد اشتياقه فى أثر كل زواج حتى جاءته مارية القبطية من قطر بعيد ، ومن معدن غير المعدن الذى يختار لايواء المحزونات وتقريب الأسر والعصبيات ، فبشرت النبى بعقب لعله غلام ، واجتمع فى هذه البشارة اشتياق نيف وعشرين سنة ، ورجاء لاينتهى بانتهاء الزمان

وولد ابراهيم !

ولد الطفل الذى نظر أبوه اليه يوم مولده فامتد به الأمل مئات السنين بل ألوف السنين ، وتخير له الاسم الذى وراءه أعقاب كأعقاب جده الأعلى ، ليكون أبا ويكون له أحفاد ، ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد

ثم مات ذلك الطفل الصغير

ومات ذلك الأمل الكبير

مات كلاهما والأب فى الستين .. أى صدمة فى ختام العمر ؟.. أى أمل فى الحياة ؟.. الدين قد تم ، وهذه الآصرة قد انقطعت ، فليس فى الحياة ما

يستقبل وينتظر : كل ما فيها للاشاحة والادبار

مات الطفل ولما يدرك السنتين

مصاب صغير ان كانت المصائب تقاس بسنوات المفقودين

ولكن المصائب فى الأعزاء انما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم ، والصغير أحوج الى العطف من الكبير المستقل بشأنه

وانما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا ، وتعويل الصغير على وليه أكبر من تعويل الكبير

وانما تقاس بمبلغ الأمل فيهم ، والأمل يطول فى بداءة الطريق وقد يقصر فى منتصف الطريق

انما تقاس آلام المفقودين بأعمار الفاقدين . وأى مصاب أفدح من مصاب الستين وما بعدها فى الأمل الوحيد الواصل بينها وبين الزمان ماضيه وآتيه ؟

ما تخيلت محمدا فى موقف أدنى الى القلوب الانسانية من موقفه على قبر الوليد الصغير ذارف العينين مكظوم الوجد ضارعا الى الله

نفس قد نفثت الرجاء فى نفوس الالوف بعد الالوف ، وهى فى ذلك الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز : رجاء وا أسفاه لا يحييه كل ما ينفثه المصلح فى الدنيا من رجاء

وكأنى بمحمد كان يومئذ أقرب الى قلوب الخالفين من بعده مما كان مع الجالسين حوله ، ومع أقرب الناس اليه

كان أقرب الناس اليه زوجاته أمهات المسلمين . وكن يحببنه غاية ما يحب النساء الأزواج ، ولكن حبهن اياه لم يكن فى هذا الموقف من المقربات العاطفات ، لأنه حب أثار غيرتهن من أم الوليد المأمول ، فاحتجب من عطفهن بمقدار تلك الغيرة وبمقدار ذلك الحب . ولا لوم عليهن فيما طبع عيه الانسان وفيما لا يقصدنه ولا يقدرن عليه

وكان أقرب الناس اليه أصحابه الخاشعون بين يديه ، وكان اكبارهم لسيد الأنبياء ينسيهم أنه أب من الآباء ، بل أنه أب أرحم من سائر الآباء

ظنوا أن النبى لايحزن ، كما ظن قوم أن الشجاع لايخاف ولا يحب الحياة ، وأن الكريم لايعرف قيمة المال

لكن القلب الذى لايعرف قيمة المـال لا فضل له فى الكرم ، والقلب الذى لايخاف لا فضل له فى الشجاعة ، والقلب الذى لايحزن لا فضل له فى الصبر . انما الفضل فى الحزن والغلبة عليه ، وفى الخوف والسمو عليه ، وفى معرفة المال والايثار عليه

وفضل النبى فى نبوته وفى أبوته أنه حزن وبكى ، وتلك هى الصلة بينه وبين قلب الانسان ، وبينه وبين الناس ، وأى نبى تنقطع بينـه وبين القلب الانسانى صلة كهذه الصلة التى تجمع أشتات القلوب ؟

روى أسامة بن زيد أن زينب بنت النبى أرسلت اليه : « ان ابنتى قد حضرت فاشهدنا » فأرسل اليها السلام ويقول : « ان لله ما أخذ وما أعطى، وكل شىء عنده مسمى . فلتحتسب ولتصبر » . فأرسلت تقسم عليه ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم وقمنا . فرفع الصبى فى حجر النبى ونفسـه تقعقع . ففاضت عينا النبى صلى الله عليه وسلم . فقال له سعد : « ما هذا يارسول الله ؟ »

قال : « هذه رحمة وضعها الله فى قلوب من شاء من عباده . ولا يرحم الله من عباده الا الرحماء »

ما هذا يارسول الله ؟ !

هذا رسول الله فى أصدق ما تكون عليه رسالة الرسل : فى الرحمة ، وفى الآصرة الانسانية ، وغير هذا لن يكون

ومحمد قد اتقى رؤية طفل يموت لابنته وهو كهل غير يائس من العقب ، فكيف يكون حزنه على فلذة كبده ابراهيم وهو بعده ذاهب الرجاء فى الأبناء ؟

لقد كان حزنه لموته بمقدار فرحه بمولده ، وكان فرحه بمولده بمقدار أمله فيه واشتياقه اليه

وان العطف الانسانى كله ليتجه الى تلك النفس الزكية وهى تتوسع

فرحا بالوليد المأمول ... حلق الأب المتهلل شعر وليده وتصدق بزنته فضة على المساكين ، وذلك هو التوسـع الذى وسعه رجل كان أقدر الرجال على وجه البسيطة غير مستثنى فيها رؤساء ولا ملوك

جاء بأقصى ما عنده من الفرح وأقصى ما عنده من التوسعة ، ولو شاء لقد كان وزن الوليد كله درا وجوهرا بعض ما يستطيع فى ذلك اليوم الأغر الميمون

وبمقدار هذا الفرح الطهور يوم الاستقبـال كان الحزن الوجيع يوم الوداع :

خرج الرجل الذى اضطلع بأعباء الدنيا ومن فيها وهو لا يضطلع بحمل قدميه : خرج يتوكأ على صديق عطوف الى حيث يحمل الوليد آخر مرة فى حجره الأبوى قبل أن يودعه حجر التراب . وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال : يا جبـل ! لو كان بك مثـل ما بى لهدك . ولكن انا لله وانا اليه راجعون

أى والله ! انها لاحدى الفواقر التى يحملها اللحم والدم ولا تحملها صخور الجبال

وصرخ أسامة حين بكى رسول الله . فنهاه رسول الله وقال : البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان

حزن كما ينبغى له أن يحزن . أما الحزن الذى لا ينبغى له فهو الصراخ الذى نهى عنه ، وهو أن تنكسف الشمس يوم موت ابراهيـم فيحسب المسلمون أنها انكسفت لموته ، ويقول الأب الذى انكسفت الشمس حقا فى عينيه : كلا ! « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ! »

أو تخسفان ولكن فى أكباد المحزونين ، وليس فى كبد السماء

أكرم الآباء

أو كان من الحتم أن يكون محمد مثال الآباء كما كان مثال الأنبياء ؟..

كذلك شاء القدر القادر ، وكذلك رأينا محمـدا مثال الأب يوم ولد له ابراهيم ، ومثال الأب يوم ذهب عنه ابراهيم

ما يتمنى طفل ـ لو جاز أن يتمنى الاطفال ـ أبوة أرحم ولا أزكى من هذه الأبوة فى الحالتين

بل كان محمد مثال الأب حيثما كان له نسل قريب أو بعيد ، وذكر أو أنثى ، وصغير أو كبير

أرأيت الى الحسن بن فاطمة وقد دخل عليه فركب ظهره وهو ساجد فى صلاته ؟

ان النبى فى صلاته لهو النبى فى مقامه الأسنى . وان النبى فى مقامه الأسنى ليشفق أن يشغل الصبى عن لعبه فيطيل السجدة حتى ينزل الصبى عن ظهره غير معجل . ويسأله بعض أصحابه : لقد أطلت سجودك ؟.. فيقول : ان ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله !

أرأيت الى فاطمة تدخل البيت أشبه الناس مشية بمشية محمد ؟.. أرأيت الى حنان يفيض على القلب كحنانه حين يرى فتاة تشبه أباها فى مشيته وسمته !

تلك فاطمة بقية الباقيات من الأبناء والبنات ، يختصها النبى بمناجاته فى غشية وفاته : انى مفارق الدنيا فتبكى . انك لاحقة بى فتضحك ... فى هذا الضحك وفى ذلك البكاء على برزخ الفراق بين الدنيا والآخرة أخلص الود والحنان بين الآباء والأبناء

سرها بنبوته ! وسرها بأبوته ، فضحكت ساعة الفراق لأنها ساعة الوعد باللقاء

وكذلك فارق الدنيا أكرم الأنبياء وأكرم الآباء

السّيّد

الخير المطبوع

قدمنا الكلام فى فصول هذا الكتاب عن محمد رئيسا ، ومحمد صديقا ، ومحمد زوجا ، ومحمد أبا ، بعد الكلام على عبقريته فى الدعوة ، وعبقريته فى قيادة الجيوش ، وعبقريته فى السياسة والادارة والبلاغة

وبقى جانب لا تتم بغيره الاحاطة بجوانب النفس الانسانية فى العلاقات بينهما وبين سائر النفوس ، وهو جانب المعاملة التى تكون بين الرجل ومن هم دونه ممن يملك أمرهم ويقبض على زمامهم ولا يعتصمون منه بعاصم غير عواصم طبعه وخلقه . ونريد بهم الخدم والعبيد الأرقاء ، وهى معاملة لها من الدلالة على الأخلاق ، ما يندر أن تدل عليه معاملة أخرى ، لأنها تأتى من طبائع النفس وعقائدها ، ولا تأتى بأمر آمر أو بدعوة داع

فالصداقة لها الحقوق المتكافئة بين الصديقين . لايستطيع أحدهما أن ينساها زمنا طويلا الا ذكره بها مذكر من صديقه الحافظ لحقوقه ، القادر على مقابلة الجفاء بمثله ، ولو فى طوية نفسه

والرئاسة قد تخول الرئيس حق السيطرة ، وتفرض على المرؤوسين واجب الطاعة ، غير أنها قل أن تنطلق بغير وازع من خشية الغضب أو خشية الانتفاض يحسب له الرئيس كل الحساب ، أو بعض الحساب

والأب يعطف على بنيه فلا يعجب الناس لعطفه عليهم ، لما ركب فى طباع جميع الأحياء من حب الأب لولده ، وان اختلف الآباء فى صفات العطف وفى استحقاقهم لبر الأبناء

وكذلك الزوج يرفق بزوجته وليس له كل الاختيار فى رفقه ، لما يكون بين الزوجين من دالة يعتز بها الضعيف ، ويستغنى بها أحيانا عن القوة والرئاسة

أما العبد المملوك فلا عاصم له غير ما فى نفس سيده من رحمة وخير ، وانه لمن الرحمة والخير أن يتبع السيد أمر الدين مع عبيده وخدمه الذين لا ينصرهم عليه ناصر فى هذه الدنيا . بل انها لرحمة تؤثر ولو وقفت عند حدود الأوامر الالهية ، فاذا تجاوزتها الى طواعية فى الخير لم يفرضها الدين ولم يفرضها العرف ولم يطلبها العبد نفسه فتلك هى الرحمة فى أصدق معانيها ، وهى أدل الدلالات على لباب الأخلاق

ولقد علم القارىء من فصولنا السابقة اننا لم نكتب هذا الكتاب لشرح الأصول الاسلامية وتفصيل محاسن الدعوة المحمدية . فذلك غرض لا تتسع له هذه الفصول وليس لنا أن نتصدى له بعد من فصلوه وكرروا الكتابة فيه

وانما نقصد بهذه الفصول الى غرض قدمناه على كل غرض فى موضوعه ، وهو بيان البواعث النفسية التى توحى الى النبى أعماله ومعاملاته ، ولا شك فى مطابقة هذه البواعث لكل أمر من أوامر الدين وكل نهى من نواهيه . الا أن الخير المطبوع شىء والخير المأمور شىء آخر . والخير المطبوع هو الذى قصدنا الى بيانه بكل ما بيناه

ففى كتابتنا عن معاملة محمد للعبيد والخدم لا ننوى أن نفصل أحكام الاسلام وأوامر القرآن فى هذه المعاملة ، وانما ننوى أن نبين مزية محمد على جميع السادة فى هذا الباب ، وهى مزية لا تتوافر لمن يقنعون بالتزام الأوامر والحدود ، ولا للذين يرتفعون الى أرفع مرتبة تفرضها هذه الأوامر والحدود

الاسلام والرق

على أن هذا لا يمنعنا أن نوجز الاشارة بداءة الى مزية الاسلام بين الأديان الأخرى فى مسألة الرق والاستعباد ، لأن أناسا يخلطون بين اعتراف الاسلام بنوع من الرق وبين اعتباره مسؤولا عن وجوده فى الزمن القديم ، ويردون شيئا من ذلك الى عمل النبى عليه السلام

فمن الواجب أن نذكر أولا أن دينا من الأديان الأخرى لم يأمر بالغاء الرق فى شكل من أشكاله ، سواء رق الحروب أو رق النخاسة والبيع والشراء ، وان أناسا من أقطاب المسيحية كالقديس أغسطين سوغوه واعتبروه جزاء عادلا للخطايا التى يقترفها المسترقون ، وجاء بعض أحبار الكنيسة فحرموا على الأرقاء شرف الخدمة فيها بالوعظ والهداية ، انفة لها أن يدنسها لؤم العنصر الذى وسموا به الرقيق

ويجب أن نذكر بعد هذا أن النظام الاقتصادى القديم فى أساسه كان مرتبطا بالاسترقاق أشد الارتباط . فكان الغاؤه طفرة واحدة أقرب شىء الى المستحيلات ، ولم يكن أنفع فى علاجه من التدرج خطوة فخطوة والابتداء بتصعيبه وترغيب الناس عنه ، وهو ما شرعه الاسلام

فالاسلام قد بدأ بتحريم كل رق غير رق الأسرى فى الحروب ثم حسن اطلاقهم وسماه منا وعفوا يشكر فاعله عليه : « فاما منا بعد واما فداء »

ثم أجاز للأسير أن يشترى نفسه ، وأوجب حريته فى حالات كثيرة يرجع معظمها الى ارادته هو ، اذا استطاع

والحق الذى لا مراء فيه أن صنيع الاسلام هذا كان أجمل صنيع لقيه الأرقاء من دين أو شريعة ، وانه اذا كان هناك تمهيد لالغاء الرق بتة فذلك هو تمهيد الاسلام دون غيره ، وهو أقصى ما كان مستطاعا فى نظام العالم القديم : نظام كان عدد الأرقاء فيه يقارب عدد الأحرار ، كما جاء فى بعض الاحصاءات المروية عن الحضارتين الرومانية واليونانية

وقد نظر فى مسألة الرق عقل من أكبر العقول التى نبغت فى أمة اليونان بل فى الأمم كافة — ونعنى به أرسطو — فأقره وأوجبه لأنه جعله سنة من سنن الفطرة وقيدا لا فكاك منه لطائفة من الناس ، خلقت عاجزة عن ولاية أمرها فلا غنى لها عن سيد ولا موئل لها من وال

معاملة محمد لعبيده

ولو وقف النبى عند هذا الحد فى معاملة الأرقاء لأحسن وأجمل وامتاز بأمر دينه على كل محسن الى الأرقاء فى زمانه ، الا أننا نقرر الواقع ولا

تتعداه قيد شعرة حين نقول أن كثيرا من الأبناء لا يتمنون عند آبائهم خيرا من المعاملة التى ظفر بها خدم محمد وعبيده . ومن من الآباء يحسن الى أبنائه خيرا من احسان محمد لزيد بن حارثة ولابنه أسامة ؟

فقد أعتق زيدا ورآه أهلا للزواج بعقيلة من أقرب قريباته اليه وأولاهن بحدبه وتوقيره ، وهى التى رآها بعد ذلك أهلا لزواجه بها وحظوتها لديه . فلم يعطه الحرية وكفى ، ولم يعطه المساواة فى العيش وكفى ، بل رفعه الى المنزلة الاجتماعية التى يرتفع اليها السادة ، ولا يثبتها شىء كما ثبتها شرف المصاهرة

ثم حفظ هذا البر الأبوى لابنه أسامة فولاه جيش الشام وهو دون العشرين ، وفى الجيش طائفة من أكابر الصحابة . فلو كان للنبى ولد فى سنه لما تكفل به أحسن من هذه الكفالة ، ولا ميزه أشرف من هذا التمييز

نعم لم نعد الواقع ولا تجوزنا فى الوصف حين قلنا ان الابن لا يتمنى خيرا من معاملة محمد لعبده . فقد عرف زيد فعلا أن محمدا خير من أب وخير من أسرة كاملة يرجع اليها وترجع اليه . فبقى معه ولم يذهب مع أبيه ، ولم يبق معه ايثارا لبركة النبوة فان محمدا لم يكن قد أرسل بالدعوة يوم اختاره زيد وآثره على جميع آله . وانما بقى معه لأنه الانسان الذى يعرف حتى العبد الرقيق أن آصرة الانسانية عنده أوثق من آصرة الأبوة عند آخرين

ان حب الوالد لوليده وراثة ألوف الالوف من الاجيال . بل وراثة الحياة فى جميع الأحياء . فاذا بلغ البر بالضعفاء مبلغ الحب الأبوى من القوة فقد بلغ الذروة العليا التى لا متسنم فوقها لراق

لقد خيرت شريعة الاسلام المحسنين بين المن واعتاق الأسرى ، وبين الفداء بالمال أو المبادلة . فأيهما اختار المالك فهو احسان

أما محمد فقد اختار المن وزاد عليه . فأعتق كل أسير صار الى حوزته ، وزاد على العتق تلك الرحمة الأبوية التى شملت كل منتم اليه ، ولم يستبح فى غضبه ما يستبيحه المعلم والوالد من ضرب وتعزير . وربما كانت

كلماته للخادم المخالف أقرب الى الملاطفة منها الى العقاب . ومن ذلك قصة الوصيفة التى أرسلها فأبطأت فى الطريق ، فما زاد على أن قال لها حين عادت : « لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك ! »

ضرب سواك لابن عزيز ليس بالشىء الكثير

ولكن محمدا يخشى القصاص اذا استباحه فى معاملة وصيفة تهمل أمره ، وهو الذى لا يهمل له أمر عند سادة الشرفاء

وروى أنس أن النبى أرسله فى حاجة فانحرف الى صبيان يلعبون فى السوق ، « واذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض ثيابى من ورائى ، فنظرت اليه صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، فقال : يا أنيس ! اذهب حيث أمرتك ! »

كلمة أمر لا يقولها لخادمه الا وقد ناداه مدللا وقابله ضاحكا كأنه يعتب على قرين . وقد يلام القرين بأشد من هذا الملام

وكانت رحمته بعبيد غيره كرحمته بعبيده ، فكان يجاملهم ويجبر كسرهم ويقبل منهم الهدية ويكافىء عليها ، ويلبى دعوتهم اذا دعوه الى طعام ، ويوصى بهم قائلا : « هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم » و « اتقوا الله فى الضعيفين النساء والرقيق »

البر بالخدمة

وربما كان البر بالخدمة فى هذا المقام أكرم وأنفى للهوان من البر بالخدم ... فالبر بالخادم عطف عليه . أما البر بالخدمة فارتفاع بالخادم الى مقام السادة حيث لا يأنف السادة من خدمة أنفسهم بأيديهم ، وذلك هو البر بالخدمة كما عنيناه ، وذلك هو دأب النبى الذى جرى عليه فى بيته وبين أهله وخدمه

فقد كان يحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعلف ناضحه أى البعير الذى يستقى عليه الماء . فاذا رأى الخدم لهم عملا فى البيت يماثل

عمل سيدهم وما لك أمرهم فتلك هى المساواة التى تمسح ضير الخدمة وتجبر كسرها ، ولا تقتصر على العطف والرحمة

ولم يقبل عليه السلام خدمة من خادم يأنف الأحرار أن يقضوها له شاكرين . فما كان فى رجالات المسلمين كابر ابن كابر الا كان يتمنى أن يؤدى لنبيه تلك الخدمة التى تطوعت بها نفوس مواليه وأتباعه . وهذا ضرب آخر من ضروب البر بالخدمة والتسوية فيها بين مقام الخادم ومقام المريد . فكان عمل الخادم عنده عمل التلميذ الذى يجلس الى قدمى أستاذه ، حبا لا خنوعا وتوقيرا لا مذلة وأدبا يفرضه على نفسه وليس بضريبة مكتوبة يفرضها عليه العرف والتأديب

وعلى هذا كان النبى عليه السلام يكره أن تقبل يداه مخافة أن تجرى العادة بهذا بين الناس فتحمل بينهم على محمل الذلة والخضوع . قال أبو هريرة رضى الله عنه : « دخلت السوق مع النبى صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويل ، وقال للوزان : زن وأرجح ... فوثب الوزان الى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها ، فجذب يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، انما أنا رجل منكم . ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله فقال : صاحب الشىء أحق بشيئه أن يحمله »

ولقد يصح أن يقال أن حصة النبى من خدمة نفسه كانت أعظم من حصة خدمه . وأن تعويلهم عليه كان أكبر من تعويله عليهم وانه جعل الخدمة على سنته ضربا من توزيع الأعمال ، أو ضربا من تعاون أبناء البيت الواحد فيما يستطيعه كل منهم من تدبيره وقضاء شئونه

« انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد »

هذه كلمة السيد بامامته ، السيد بنسبه ، السيد بسلطانه ، السيد بالتفاف القلوب حوله ، السيد بسيادته على سره وعلانيته ورأيه وهواه . ولو عمت هذه السيادة لبطل الاستعباد وأصبح تفاوت الدرجات كتفاوت الأعمار شيئا لا غضاضة فيه على صغير ولا خنزوانة فيه لكبير . انما هو تقسيم أعمال ، وتعاون بين اخوان ، وان لم يكن تعاونا بين أمثال

العابد

الطبائع الاربع

طبيعة العبادة ، وطبيعة التفكير ، وطبيعة التعبير الجميل ، وطبيعة العمل والحركة ...

هذه طبائع أربع تتفرق فى الناس وقلما تجتمع فى انسان واحد على قوة واحدة . فاذا اجتمعت معا فواحدة منهن تغلب سائرهن لا محالة ، وتلحق الأخريات بها فى القوة والدرجة على شىء من التفاوت

طبيعة العبادة تدعونا الى الاتصال بأسرار الكون للمعاطفة والتآلف بيننا وبينها : تدعونا الى الحلول من الكون فى أسرة كبيرة

وطبيعة التعبير الجميل تشب النار المقدسة فى سرائرنا ، والكشف والاستقصاء : تدعونا الى الحلول من الكون فى معمل كبير

وطبيعة التعبير الجميل تشب النار المقدسة فى سرائرنا ، فتصهر معادن الجمال من هذه الدنيا وتفرغها فى قوالب حسناء من صنع قرائحنا وألسنتنا ، أو صنع قرائحنا وأيدينا ، أو صنع قرائحنا وأوصالنا ، تدعونا الى الحلول من الكون فى متحف كبير

وطبيعة العمل والحركة تعلمنا كيف نتأثر بدوافع الكون وكيف نؤثر فيها ، وتجذبنا اليها فنستمد منها القدرة التى تجذبها الينا : تدعونا الى الحلول من الكون فى ميدان صراع ومضمار سباق

وقلما تشعر بالكون بيتا لأسرة ، ومعملا لباحث ، ومتحف فن ، ومضمار سباق فى وقت واحد . انما هى حالة من هذه الحالات تجب سائر الحالات ، وقد تلحقها بها الحاق التابع بالمتبوع والمساعد بالعامل الأصيل

محمد بن عبد الله كانت فيه هذه الطبائع جميعا على نحو ظاهر فى كل طبيعة : كان عابدا ومفكرا وقائلا بليغا وعاملا يغير الدنيا بعمله . ولكنه عليه السلام كان عابدا قبل كل شيء ، ومن أجل العبادة قبل كل شيء كان تفكيره وقوله وعمله ، وكل سجية فيه

تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه . فولد فى بيت السدانة والتقوى ، وتقدمه آباء يؤمنون ويوفون بأيمانهم ، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه

ونشأ يتيما من طفولته فانطوى على نفسه وتعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار ، والنظر الى ما حوله بعين الناقد المترفع عن الدنايا ، الجانح الى الطهر واستقامة الضمير

وتكون فى بنيته عابدا من صباه

قيل انه فى الثانية أو الثالثة من عمره قد أدركته حالة يختلف شراح التاريخ فى تفسيرها ، ويرويها من سمعوا بها على روايات مختلفات لاندرى ما هو الواقع الصحيح منها ، ويتعجل بعض المؤرخين الاوربيين فيحسبها ضربا من الصرع على غير سند علمى أو تاريخى محقق يستند اليه

كل ما يمكن أن نجزم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمدا قد تكون ليتلقى الوحى الالهى ، وأن لهذا التكوين استعدادا لابد أن يلحظ من أوائل صباه ، لأن البنية الحية لن تتهيأ له فى أيام ولا فى شهر ولا فى سنوات ، ولن تستطيعه الا اذا تمت أهبتها له والمولود فى صلب أبيه ، ولا نقول فى المهد أو فى الرضاع

فمن الأقوال المتواترة أنه كان عليه السلام اذا نزل عليه الوحى نكس رأسه ، وكرب لذلك وتربد وجهه ، وأخذته البرحاء حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان فى اليوم الشاتى ، وسمع عند وجهه كدوى النحل ، وقد يصدع فيغلف رأسه بالحناء . وقد شاب فقال : « شيبتنى هود وأخواتها » وعدد حين سئل عن أخواتها سورا أخرى من القرآن الكريم

وليس هذا من خليقة كل بنية انسانية : انما هو خليقة البنية التى تتلقى وحيا وتستوعب سرا وتهتز لنبأ عظيم

صفة العابد

وكانت أوصافه فى غير حالة الوحى توافق الاستعداد الذى يرشحه لتلقى الوحى والنبوة . فكان حسا كله وحياة كله . يراه من ينظر اليه فيرى فؤادا يقظا يتنبه لكل خالجة نفسية وكل نبأة خفية . يسرع فى مشيته ويلتفت فيلتفت بكل جسمه ، ويشير فيشير بكل كفه ، ويفكر فلا يزال يطرق الى الأرض أو يرفع بصره الى السماء ، ويدعو فيرفع يديه حتى يرى بياض ابطيه ، ويغضب فتحمر عيناه ووجنتاه ، ويمتلىء عرق جبينه وينام وقلبه يقظ لاينام : حس مرهف يدنى اليه ما وراء الحجاب ، ويوقظ سريرته لأخفى البواطن ، ويجعله أبدا فى حالة قريبة من حالة الوحى حيثما هبط الوحى عليه

هذه صفة عابد يفكر ويعبر ويعمل ، وليست بصفة عابد ينقطع للعبادة أو ينقطع للتفكير ، أو يعمل كما يعمل بعض النساك الذين هزلت بنيتهم الجسدية فلم يبق لهم الا عكوف الصومعة أو رحلة الزهادة

كانت عبادة محمد خلوا بالنفس الى حين ، أو عجبا من بدائع الكون التى ألفها الناس لأنهم لم يوهب لهم فى أبصارهم وبصائرهم تلك النظرة الجديدة التى ترى كل شىء كأنه فى خلق جديد

ما أعظم دهشة الناظر أن يرى الشمس قد خلقت اليوم أمام عينيه دهشة لا تعدلها دهشة

وهى هى دهشة العين التى أبت أن تكل من الالفة لأنها أبدا فى نظر جديد ، أو فى نظر الى كل منظور كأنه مخلوق جديد

وهكذا كانت عبادة محمد عليه السلام : عجب من بدائع الكون فى كل نظرة كأنه يراها لأول مرة ، وتفكير فى الخلق ينتهى الى الايمان لأنه يبدأ

بالعجب ، ولا يزال أبدا بين العجب والايمان

وأن محمدا باعث الايمان الى القلوب . لقد كان يجدد ايمانه كما يجدد عجبه كل يوم . وكان يدعو الله فيقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » ... وقيل له فى ذلك فقال : « انه ليس آدمى الا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله . فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ »

حركة متجددة فى الحس وفى الفكر وفى الضمير

فلا انقطاع عن الحس للعبادة كل الانقطاع

ولا انقطاع عن الحس للتفكير كل الانقطاع

وانما هو تفكير من ينتظره العمل ، وليس بتفكير من ترك العمل ليوغل فى الفروض ومذاهب الاحتمال والتشكيك : ثلث أيامه لربه وثلثها لأهله ، وثلثها لنفسه . وما كان فى فراغه لنفسه ولا لأهله شىء يخرجه من معنى عبادة الله والاتصال بالله ، على نحو من التعميم

بهره الجمال من صباه : جمال الشمس والقمر والنهار والليل والروض والصحراء ، وجمال الوجوه التى يلمح عليها الحسن فيطلب عندها الخير. انما هو الخير على كل حال ما قد طلب من الجمال . وانما جمال الله هو الذى قد كان يدعوه اليه ، كلما نظر الى خلق جميل

فكر فى الخلق فآمن بالخالق واستقر هنالك لايتقدم ولا يتأخر . فقال : « ان الشيطان يأتى أحدكم فيقول : من خلق السماء ؟ فيقول : الله . فيقول : من خلق الأرض ؟ فيقول : الله . فيقول : من خلق الله ؟ فاذا وجد ذلك أحدكم فليقل : آمنت بالله ورسوله »

تلك هى نهاية التفكير التى ينتهى اليها عقل مستقيم خلق لعبادة عامل ، وتعليم الناس عبادة وعملا ، ولم يخلق ليوغل فى الفروض ويتقلب بين الشكوك

وانا لنسأل مع هذا : الى أين انتهى المفكرون الذين أوغلوا فى شكوكهم وتطوحوا بها الى قصوى ما تفرضه الفروض ؟

الى أين انتهى « كانت » Kant امام المفكرين فى هذا الباب بين

فلاسفة العصر الحديث ، ان لم نقل الحديث والقديم ؟

انتهى الى أن النفس نفسان والوجود وجودان : نفس حسية ونفس حقيقية . ووجود محسوس ووجود حق هو ذات الوجود

النفس الحقيقيـة تدرك الوجود الحقيقى عندما ترجع الى قرارها ، ثم لا تتخطى بادراكها عالم الباطن الى عالم المحسوسات التى يتناولها التعبير وتصدير الكلام

أليس معنى هذا أن ايمان النفس الباطنة أمر لا يتعلق بالبرهان ؟ وأن المرجع غاية المرجع انما هو الايمان ولا شىء غير الايمان ؟

بل حتى البرهان الأكبر على وجود الله نعود اليه لنسـأله ونسمع منه فماذا يقول ؟

يقول لنا أن العدم معـدوم فالوجود اذن موجـود ، وانك اذا آمنت بالوجود فلا مناص لك من الايمان به فى صفته المثلى ، لأنك تحتاج الى مقتض لفرض النقص ولا تحتاج الى مقتض لفرض الكمال فى وجود لا يتطرق اليه العدم

وما الفارق بين الايمان بالله والايمان بالوجود فى صفته المثلى ؟

هنا ينتهى الايغال فى الفروض والشكوك

وهناك انتهى الايمان ، بغير ايغال فى فروض ولا شكوك ...

لا تتلاقى النهايتان ؟ أو لا تضل الفروض والشكوك حيث تضل ثم لا يخطو لها قدمان وراء خطو الايمان ؟

لهذه السنة التى استنها النبى عليه السلام فى عبادته الروحيـة كثرت وصاياه بادمان التفكير فى خلق الله واجتناب التفكير فى ذات الله . فقال فى حديث : « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله » وقال فى هذا المعنى : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا » وقال فى حديث قدسى : « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق فعرفت » أو كما جاء فى رواية : « فخلقت الخلق فبى عرفونى »

وخلاصة هذه الاحاديث وما فى معناها أن التفكير فى حقائق الوجود هو طريق الوصول الى الله ولا طريق غيره للحواس ولا للعقل ولا للبديهة : أيمان بالوجود الأبدى فى صفتـه المثلى ، وتفكير فى حقائق الوجود كما نراها ونحسها ونعقلها ، وذلك قصارى ما عند العقيدة ، وقصارى ما عند الفلسفة ، وقصارى ما عند العلم اذ يقف العلم عند حده ، وهذا هو العلم الذى فرضه الاسلام على كل مسلم ومسلمة ، وقال النبى فى رواية ابن عباس : « انه أفضل من الصلاة والصيام والحج والجهاد فى سبيل الله » لأنه سبيل الوصول الى الله

ومن الواجب أن نذكر بعد هذا جميعه أن محمدا نبى ، وأن النبى يعلم جميع الناس الايمان ، وتلك سبيل جميع الناس فيما يفتح لهم من أبواب التفكير وأبواب الاعتقاد . فهم يضلون فى تيه الشكوك والمناقضات التى يتعمق فيها الفلاسفة والمنطقيون ، ولا يبلغون الى هداية أقوم وأسلم من هداية الايمان بالخالق والتفكير فى الخليقة . فاما هذه الهداية واما الضلال الذى لا هداية وراءه . وليس لنبى أن يحجب طريق الهداية ويفتح طريق الضلال

***

وقد تكلمنا فى هذا الفصل عن روح العبـادة أو عن فطرة العابد التى توحى اليه « عبادته الروحية »

أما عبادة الشعائر الظاهرة فهى عبادة الاسلام كما فرضت على جميـع المسلمين : يصلى النبى ويصـوم ويحج ويؤدى الزكاة على الشريعة التى يتبعها كل مسلم ، وقد يطلب الى نفسه فى هذه العبادات ما ليس يطلبـه الى غيره ، على سنة السماحة والتيسير التى أثرت عنه فى كل عمـل من أعماله وكل سجية من سجاياه

« فكان أخف الناس صلاة على الناس وأطول الناس صلاة لنفسه » وربما قام الليل أكثره أو أقله ولا يدين أحدا بالتهجد كما كان يتهجد أو بالصلاة والصيام كما كان يصلى ويصوم ، بل قد نهى الناس أن يشتدوا فى العبادة فيصبحوا كالمنبت « لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى »

لأن الناس جميعا يتلقون الأمر بالعبادة كما يتلقون الأمر بفريضة واجبة ، فهم فى حاجة الى الرفق والتيسير

أما النفس المفطورة على العبادة فالصلاة عندها مناجاة حب وفرحة لقاء ، ومطاوعة لميل الضمير وميل الجوارح على السواء

وكان محمد « اذا حزبه أمر صلى »

كذلك اذا حزب الأمر نفسا رجعت الى من تحب فخف وقرها وانفرج كربها ، وأنست بعد وحشة واهتدت بعد حيرة

ومتى وجدت النفس « فرحة اللقاء » فى الصلاة فلا اجهاد فيها لجسد ولا تضييق فيها لوقت ، بل فيها الترويح عن الجهد والتنفيس عن الضيق، ولا سيما اذا كانت النفس من سعة الأفق بحيث تحيى ما تحيى من ليلها ونهارها فى الصلاة والعبادة ثم تؤدى عملها وتفكر تفكيرها ، ولا يحسب أحد يعرفها أنها تنقطع بالصلاة والعبادة عن حق من حقوق حياتها ، أو عن حق من حقوق بنى الانسان

الرّجل

المختار

عاش فى العصور الماضية كثير من العظماء الذين تواترت الأنباء بأوصافهم السماعية وأوصافهم المرسومة فى الصور والتماثيل . غير أننا لا نعرف أحدا من هؤلاء العظماء تمت صورته السماعية أو المنقولة كما تمت صورة محمد عليه السلام من رواية أصحابه ومعاصريه ، فنحن نعرفه بالوصف خيرا من معرفتنا لبعض المخلدين بصورهم وتماثيلهم التى نقلت عنهم نقل الحكاية والمطابقة ، لأن هذه الصور والتماثيل قد تحكى للناظرين ملامح أصحابها ومعارفهم الظاهرة ، وقد تحكى للمتفرسين شيئا من طبائعهم التى تنم عليها سيماهم ، الا أنها لا تحفظهم لنا كما حفظت الروايات المتواترة أوصاف النبى فى كل حالة من حالاته وكل لمحة من لمحاته : فى سيماه وفى هندامه ، وفى شرابه وطعامه ، وصلاته وصيامه ، وحله ومقامه ، وسكوته وكلامه ، لأن الذين وصفوه وأحبوه وأحبوا أن يقتدوا به فتحرجوا فى وصفه كما يتحرج المرء فى الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة ، فكانت أمانة الوصف هنا مزيجا من العطف والتدين ، وضربا من اتباع السنن وقضاء الفروض ، لم يختلف الوصف مرة الا كما تختلف نظرة الناظر الى وجه واحد بين ساعة وأخرى . فيقول غير ما قال آنفا ثم لا يبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين

وخلاصة المحفوظ من الروايات المتواترة أن النبى عليه السلام كان مثلا نادرا لجمال الرجولة العربية ، كان كشأنه فى جميع شمائله مستوفيا للصفة من جميع نواحيها . فرب رجل وسيم غير محبوب ، ورب رجل وسيم محبوب غير مهيب ، ورب رجل وسيم يحبه الناس ويهابونه وهو لا يحب

الناس ولا يعطف عليهم ولا يبادلهم الولاء والوفاء ، أما محمد عليه السلام فقد استوفى شمائل الوسامة والمحبة والمهابة والعطف على الناس . فكان على ما يختاره واصفوه ومحبوه ، وكان نعم المسمى بالمختار

اذا نظر اليه الناظر رأى رجلا أزهر اللون ، عظيم الهامة ، مفاض الجبين ، سبط الشعر ، أزج الحاجبين بينهما عرق يدره الغضب . أدعج العينين فى كحل ، اقنى الأنف يحسبه من لم يتأمله أشم العرنين ، أسيل الخد ، ضليع الفم ، غزير اللحية ، جميل الجيد ، عريض الصدر ، واسع ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، لا بالمشذب ولا بالقصير، مربوعا أو أطول من المربوع ، معتدل الخلق متماسكا لا بالبدين ولا بالنحيل

واذا أقبل يتحرك نظر اليه الناظر فرأى رجلا يصفه الاقدمون بأنه «حى القلب» ويصفه المحدثون «بالحركة الحيوية»

يمشى فكأنما ينحدر من جبل وينحط من صبب ، ويرفع قدمه فيرفعها تقلعا كأنما ينشط بجملة جسمه ، ويلتفت فيلتفت كله ، ويشير فيشير بكفه كلها ، ويتحدث فيقارب يده اليمنى من اليسرى ويضرب بابهام اليمنى وراحة اليسرى ، ويفتتح الكلام بأشداقه ويختمه بأشداقه ، وربما حرك رأسه وعض شفته فى أثناء كلامه . وهو على هذه الحركة الحية جم الحياء : أشد حياء من العذراء ، نضاح المحيا اذا كره شيئا عرف ذلك فى وجهه واذا رضى تطلقت أساريره وتبين رضاه

واقترن النشاط والحياء بالقوة والمضاء فى هذه البنية الجميلة ... فكان عليه السلام يصرع الرجل القوى . ويركب الفرس عاريا فيروضه على السير ، ويداعب من يحب بالمسابقة فى العدو . قالت عائشة رضى الله عنها : «خرجت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم . فقال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال : تعالى حتى أسابقك . فسابقته فسبقته ، فسكت

«حتى اذا حملت اللحم وكنا فى سفرة أخرى قال صلى الله عليه وسلم

للناس : تقدموا ! فتقـدموا . ثم قال تعالى أسـابقك فسابقته فسبقنى . فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك ! »

وهذا بعد أن قارب الستين . انها لمسابقة تنم على فتوة الروح فوق ما نمت عليه من فتوة الأوصال

وتجلت هذه الأريحية فى علاقته بكل انسان من خاصة أهله أو من عامة صحبه . فرقت حاشية جده حتى عطفت على كل أسى ، ورحمت كل ضعف ، وامتزجت بكل شعور

قال أنس بن مالك رضى الله عنه : « دخل النبى عليه السلام على أمى فوجد أخى أبا عمير حزينا . فقال : يا أم سليم ! ما بال أبى عمر حزينا ؟

فقالت يا رسول الله : مات نغيره . تعنى طيرا كان يلعب به ..

فقال صلى الله عليه وسلم : أبا عمير !.. ما فعل النغير ؟ وكان كلما رآه قال له ذلك »

وهـذه قصة صـغيرة تفيض بالعطف والمروءة من حيثما نظرت اليها ، فالسيد يزور خادمه فى بيته ، ويسـأل أمه عن حزن أخيه ، ويواسيه فى موت طائر ، ولا يزال يرحم ذكراه كلما رآه

ومثل هذا عطفه على الضعف البشرى فى رجل مثل عبد الله الحمار الذى لقب بهذا اللقب لما اشتهر به من السكر والدعابة ، فكان النبى عليه الصلاة والسلام يحده فى الخمر ولا يتمالك أن يضحك منه

قبوله للدعابة

وكان نعيمان بن عمرو أشهر الأنصار بالدعابة ، لا يقيل منها أحدا ولا يراه النبى فيتمالك أن يبتسم . وربما قصد النبى ببعض هـذه الدعابات لطمعه فى حلمه وعلمه بموقع الفكاهة من نفسه : جاء اعرابى الى رسول الله فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنـائه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان : « لو نحرتها فأكلناها ؟ فانا قد قرمنـا الى اللحم ، ويغرم النبى صلى الله

عليه وسلم حقها » فنحرها نعيمان . وخرج الاعرابى فرأى راحلته فصاح : « وا عقراه يا محمـد !.. » . فخرج النبى يسأل : « من فعل هـذا ؟ » قالوا : « نعيمان » ... فاتبعه النبى حتى وجده بدار ضباعة بنت الزبير ابن عبد المطلب قد اختفى فى خندق وجعل عليه الجريد . فأشار اليه رجل ورفع صوته : « ما رأيته يا رسول الله » وهو يشير بأصبعه الى حيث هو، فأخرجه رسول الله وقد تعفر وجهـه بالتراب فقال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قال : « الذين دلوك علىّ يا رسول الله هم الذين أمرونى ! » فجعل رسول الله يمسح عن وجهه التراب ويضحك . ثم غرم ثمن الراحلة..

ونعيمان هذا هو الذى باع عاملا لأبى بكر الصديق وهو يعلم أن النبأ وصل الى النبى لا محالة

سافر أبو بكر الى بصرى تاجرا ومعه نعيمان وسويط بن حرملة عامله على زاده . فجاءه نعيمان وطلب اليه طعاما فأباه عليه حتى يأتى أبو بكر. فأقسم نعيمان ليغيظنه . وذهب الى قوم فقال لهم : « تشترون منى عبدا لى ؟ » قالوا : « نعم ! » قال : « انه عبد له كلام ، وهو قائل لكم : لست بعبده . أنا رجل حر ... الى أشباه ذلك . فان كان اذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تفسـدوا علىّ عبدى ... » قالوا : « لا . بل نشتريه ولا ننظر فى قوله » فاشتروه منه بعشر قلائص ، ثم أداهم اياه فوضعوا عمامته فى عنقه ولم يحفلوا بقوله ، وجعلوا كلما قال لهم : « أنا حر ! انه يتهزأ ولست أنا بعبده » سخروا منه وقالوا : بل عرفنا خبرك فدع عنك اللجاجة .... فلما جاء أبو بكر سـأل عنه فقص عليه نعيمان قصته ، وذهبوا جميعا ليلحقوا بالقوم فيفتدوه ويعيدوه

ثم قدموا على رسول الله فضحك من فعلة نعيمان وجعل يذكرها حولا كاملا كلما رآه

من سعة النفس أن ينهض الرجل بعظـائم الأمور بل بأعظمها جدا ووقارا وهو اقامة الأديان واصلاح الأمم وتحويل مجرى التـاريخ ثم يطيب نفسا للفكاهة ويطيب عطفا على المتفكهين . ويشركهم فيما يشغلهم

من طرائف الفراغ . فللجد صرامة تستغرق بعض النفوس فلا تتسع لهذا الجانب اللطيف من جوانب الحياة ، ولكن النفوس لا تستغرق هذا الاستغراق الا دلت على شيء من ضيق الحظيرة ونقص المزايا وان نهضت بالعظيم من الأعمال

فاستراحة محمد الى الفكاهة هى مقياس تلك الآفاق النفسية الواسعة التى شملت كل ناحية من نواحى العاطفة الانسانية ، وهى المقياس الذى يبدى من العظمة ما يبديه الجد فى أعظم الأعمال

وكان محمد يتفكه ويمزح كما كان يستريح الى الفكاهة والمزاح ، وكان دأبه فى ذلك كدأبه فى جميع مزاياه : يعطى كل مزية حقها ولا يأخذ لها من حق غيرها ، أو يعطى الفكاهة حقها ولا ينقص بذلك من حق الصدق والمروءة . فعبد الله الخمار كان يجد من قلب النبى عطف القلب الكبير على نقيصة الضعف فى الرجل السكير ، ولكنه كان يجد من تأديب النبى جزاء الشارب الذى يخالف الدين ويخل تماديه بالشريعة . عطف يجمل بالنبى على أحسن ما يكون ، لأنه يجمل بالانسان على أفضل ما يكون

واذا مزح محمد فانما كان يعطى الرضى والبشاشة حقهما ولا يأخذ لهما من حق الصدق والمروءة . فكان مزاجه آية من آيات النبوة لأنه كان كذلك آية من آيات الانسانية ، ولم يكن بالنقيض الذى يستغرب من نبى كريم

قال لعمته صفية : لا تدخل الجنة عجوز !.. فبكت . فقال لها وهو يضحك : الله تعالى يقول : « انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا » ..... ففهمت ما أراد وثابت الى الرضى والرجاء

وطلب اليه بعضهم أن يحمله على بعير . فوعده أن يحمله على ولد الناقة . فقال يا رسول الله ! ما أصنع بولد الناقة ! فقال : وهل تلد الابل الا النوق ؟

وكان عليه السلام يقول لحاضنته السوداء أم أيمن وهى عجوز : غطى قناعك يا أم أيمن ! »

وسمعها فى يوم حنين تنادى بلكنتها الأعجمية : « سبت الله أقدامكم ! » فلم تنسه الغزوة القائمة أن يصغى اليها ويداعبها بين نذر الحرب وصليل السيوف ، وأقبل عليها يقول : «أسكتى يا أم أيمن فانك عسراء اللسان !» فكانت هذه الدعابة فى ذلك الموقف المرهوب كأنها تربيت سيد الفصحاء على تلك اللكنة البريئة

أريحية محمد

هذه الأريحية الفياضة هى الحلية الباطنة التى تمت بها حلية محمد فى عيون الناس ، وهى جواب محمد لما كان له فى قلوبهم من حب واعظام ، أو هى الآصرة التى تجمع بين قلبه وتلك القلوب فى نطاق الأسرة الانسانية : يحبونه ويحبهم ويشعرون به ويشعر بهم ، وليس قصارى الأمر أنه وسيم وأنه محبوب وأنه مهيب

سمت يقابل العيون بجمال

وأريحية تقابل النفوس بجمال

وقد سرت هذه الاريحية فى صميم طويته فامتزجت طواعية وارتجالا بجميع خصاله وجميع علاقاته بالناس ولا سيما الضعفاء والمكسورين . فكان أحرص انسان على جبر القلوب وتطبيب الخواطر وتوخى المؤاساة واجتناب الاساءة ، يتفقد أصحابه كبارا وصغارا ويسأل عنهم ، ويتحدث الى ذوى الأقدار وعامة الناس فلا يحسب صغيرهم أن أحدا أكرم عليه منه ، ويتحدث اليه من شاء فلا يقطع عليه حديثه وان طال . واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ومن جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف ، وما أخذ أحد بيده فأرسلها حتى يكون الآخذ هو الذى يرسلها

ومن سننه التى اتبعها وأوصى باتباعها أن يجيب دعوة من دعاه ولا يرد دعوة عبد ولا خادم ولا أمة ولا فقير ، وفى ذلك يقول من وصاياه فى آداب الولائم والمحافل : « اذا اجتمع الداعيان فأجب أقربهما بابا ، فان أقربهما

بابا أقربهما جوارا ، وان سبق أحدهما فأجب الذى سبق »

يبدأ من لقيه بالسلام ويمر بالصبيان فيقرئهم سلامه . وربما خفف صلاته اذا جاءه أحد وهو يصلى ليسأله عن حاجته ويلقاه بالتحية

يتقى الغضب جهده ويعالجه اذا أحسه بعلاج من الروح فيقبل على الصلاة والتسبيح ، أو بعلاج من الجسد فيجلس اذا كان قائما ويضطجع اذا كان جالسا ، ويأبى الحركة التى ينزع اليها وهو غضبان

آدابه الاجتماعية

وكان فى آدابه الاجتماعية قدوة الرجل المهذب فى كل زمان . فلم ير قط مادا رجليه بين أصحابه ، وتعود كلما زار أحدا ألا يقوم حتى يستأذنه ، ولم يكن ينفخ فى طعام ولا شراب ولا يتنفس فى اناء ، واذا أخذه العطاس وضع يده أو ثوبه على فيه ، وربما نهض بالليل فيشوص فاه بالسواك ، ولايزال يستاك ويوصى بالاستياك بعد الطعام والتيقظ من النوم ، وكان يتطيب ويتحرى النظافة ويقول لصحبه : « اغتسلوا يوم الجمعة ولو كأسا بدينار »

وقد تختلف العادات الاجتماعية بين جيل وجيل فى شئون عرضية لا تتصل بلباب الذوق والشعور . فيأكلون فى جيل بأصابع اليد ويأكلون فى الجيل الآخر بالشوكة والسكين ، ويخرج أناس بالثياب السود ويخرج غيرهم بالثياب البيض . وهى عرضيات يقاس بها عرف البيئة ولا يقاس بها تهذيب الطباع ، فلا ضير على الناس أن تختلف عاداتهم باختلاف بيئاتهم من أمة لأمة ومن جيل لجيل . وانما الضير فيما يتناول الطبع السليم والذوق الحسن وهما الخصلتان اللتان كان عليه السلام قدوة فيهما لكل رجل مهذب فى كل أمة وفى كل زمان . فلم يكن يهفو فى حق أحد . ولم يكن أحد يشكو من محضره بانصاف ، وذلك هو ملاك التهذيب الكامل فى أصدق معانيه

صاحب هذا السمت رسول

وصاحب هذه الآداب رسول

وخلاصة سمته وآدابه أنها سماحة فى الانظار وسماحة فى القلوب . فالسماحة هى الكلمة الواحدة التى تجمع هذه الخصال من أطرافها ، والسماحة هى الصفة التى ترقت فى محمد الى ذروة الكمال

ومن يكون الرسول ان كان لابد من تعريف وجيز لعلامات الرسالة ؟ الرسول هو الذى له وازع من نفسه فى الكبير والصغير مما يتعاطاه من معاملات الناس ، لأن عمل الرسول الاول أن يقيم للناس وازعا يأمرهم بالحسن وينهاهم عن القبيح ويقرر لهم حدودهم التى لا يتخطونها فيما بينهم ، ومن كان هذا عمله الاول فينبغى أن تكون صفته الاولى — بل صفته الكبرى — أن يستغنى عن الوازع وأن يغنى الناس عن محاسبته وطلب الحق منه . وهذه هى السليقة الشاملة التى سرت فى خلائق محمد وامتزجت بجميع أعماله وأقواله فلم يحاسبه أحد قط كما حاسب نفسه فى رعاية حق الصغير والكبير ، وصيانة الحرمات للعاجز والقدير

هذه علامة رسالة لا علامة أصدق منها ولا أجدر منها بالقبول ، لأنها علامة من داخل السريرة . وليست علامة من خارجها قد تلازم أو تفارق من تعروه

وليس للنوع البشرى مقياس صحيح يقاس به محمد فيعطيه مرتبة دون مرتبة الحب والتبجيل

يعطيه هذه المرتبة من يدين بالاسلام ومن يدين بغير الاسلام ومن ليس له دين من أديان التنزيل

فليس للنوع البشرى أصل من أصول الفضائل يرمى الى مقصد اسمى وأنبل من تقديس تلك المناقب التى كان محمد قدوة فيها للمقتدين

عزيمة الزهد والايمان

وليس أولى بالحب والتبجيل ممن يطلب خير الناس ويزهد فى نعمة العيش وهى بين يديه

فقد ثبت أن محمدا لم يستمتع بدنياه ولم يشبع ثلاثة أيام تباعا حتى مضى لسبيله ، وقالت عائشة رضى الله عنها : « لقد كنت أبكى رحمة له مما أرى به وأمسح بيدى على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول : نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقوتك » فيقول : « يا عائشة ! مالى وللدنيا ... اخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا »

وقالت زوجه أم سلمة تصف ما وجدته فى بيته ليلة عرسها : « ... فاذا جرة فيها شىء من شعير ، واذا رحى وبرمة وقدر وكعب فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته فى البرمة ، وأخذت الكعب فأدمته ، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه ! »

رآه عمر وقد أثر فى جنبه حصير فقال له : « يا رسول الله ! قد أثر فى جنبك رمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله » فاستوى جالسا وقال : « أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ! »

ولقد مات ودرعه مرهونة ، ولا ميراث لأهله مما ترك من عقار ، وهو قليل

فما عسى أن يقول قائل فى قدر هذا الرجل — آمن به أو لم يؤمن ؟

أيقول انه رسول وانه كان يعلم أنه رسول فصدع بأمر ربه واحتمل ما احتمل فى سبيل طاعته وفى سبيل اصلاح خلقه ؟

تلك اذن منزلة الانبياء التى تستوجب له مقام أصفياء الله عند من يؤمن بالله ؟

أم ينكر النبوات ويقول أنه رجل أراد الخير وهو لا يعلم أنه رسول ولا أن الله مطالبه برسالته الى خلقه ، ولكنه تجرد لهدايتهم فى غير مأرب يناله ولا نعمة ينعم بها لأنه لا يطيق لهم شرا ولا ينتظر فى الدنيا ولا الآخرة من جزاء ؟

من قال هذا وغض من قدر رجل يحب الناس ذلك الحب ويغار على

هدايتهم تلك الغيرة فهو انسان ممسوخ الضمير

***

فمحمد الرجل فى المقام الأول بين الرجال : فى المقام الأول بخلقته ، وفى المقام الأول بنيته ، وفى المقام الأول بعمله ، وفى المقام الأول بالقياس الى المشبهين له فى دعوته

ونرى عن يقين انه لم يحرم نفسه ذلك الحرمان الا استزادة لأسباب الايمان وشحذا للعزيمة فى سبيل ذلك الايمان ، واعذارا الى الله والى الناس فيما تجرد له من اصلاح

لأن محمدا لم يكن كارها لطيبات الدنيا ولا حاضا لأحد على كراهتها والاعراض عنها . فاذا قنع بما قنع فانما فعل ذلك ليرتفع بايمانه عن ظنه هو لا عن ظنون غيره ... كأنه يخشى اذا استوفى حظوظ النعيم الميسرة له أن يحسب تلك الحظوظ غرضا من الأغراض التى نظر اليها حين نظر الى هداية الناس

فليكن الايمان اذن هو كل غرض وكل عمل وكل جزاء ... وتلك راحة ضميره ، ومن وراء راحة ضميره أن يظفر الناس بجهده كله فى هدايتهم غير منقوص ولا مظنون

اذا هدى الناس واستمتع بالعيش خشى أن يحسب المتعة من آماله

واذا هدى الناس وكفى كانت الهداية هى جملة الآمال وغاية الآمال .. فلينقص حظه من العيش ليكمل حظه وحظ أمته من ايمانه ، وليتم بذلك حسابه لنفسه وحسابه عند الله وحسابه بين الناس

وما حساب أولئك جميعا ؟

حساب رجل هو وازع نفسه فى السر والعلانية ، وهو أحق الناس أن يقيم وازعا للناس

رجل ولا كمثله الرجال

محمّد فى التاريخ

اتصال التاريخ بمحمد

أردنا بالفصول المتقدمة أن نصف محمدا فى عبقريته ، أومحمدا فى نفسه ، أو محمدا فى مناقبه التى يتفق على تعظيمها من يدين برسالته الدينية ، ومن لا يدين له برسالة

ونريد بهذا الفصل ــ وهو خاتمة الكتاب ــ أن نذكر كلمة موجزة عن محمد فى التاريخ ، أو محمد فى العالم وأحداثه الخالدة . وهو بحث يغنينا فيه الايجاز ، لأن العالم كله صفحات تنبئنا بمكان محمد فيه

محمد فى نفسه عظيم بالغ فى العظمة ، وفاقا لكل مقياس صحيح يقاس به العظيم عند بنى الانسان فى عصور الحضارة

فما مكان هذه العظمة فى التاريخ ؟ ما مكانها فى العالم وأحداثه الباقية على تعاقب العصور ؟

مكانها فى التاريخ أن التاريخ كله بعد محمد متصل به مرهون بعمله ، وأن حادثا واحدا من أحداثه الباقية لم يكن ليقع فى الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد وظهور عمله

فلا فتوح الشرق والغرب ، ولا حركات أوربا فى العصور الوسطى ، ولا الحروب الصليبية ، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب ، ولا كشف القارة الامريكية ، ولا مساجلة الصراع بين الاوربيين والاسيويين والافريقيين ، ولا الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات ، ولا الحرب العظمى التى شهدناها قبل بضع وعشرين سنة ، ولا الحرب الحاضرة التى نشهدها فى هذه الأيام ، ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه كانت واقعة

فى الدنيا كما وقعت لولا ذلك اليتيم الذى ولد فى شبه الجزيرة العربية بعد خمسمائة واحدى وسبعين سنة من مولد المسيح

كان التاريخ شيئا فأصبح شيئا آخر ، توسط بينهما وليد مستهل فى مهده بتلك الصيحات التى سمعت فى المهود عداد من هبط من الأرحام الى هذه الغبراء .. ما أضعفها يومئذ صيحات فى الهواء .. ما أقواها بعد ذلك أثرا فى دوافع التاريخ .. ما أضخم المعجزة .. وما أولانا أن نؤمن بها كلما مضت على ذلك المولد أجيال وأجيال ، وما أغنانا أن نبحث عنها قبل ذلك بسنين حيثما بحث عنها المنجمون والعرافون ..

فتوح ايمان

على أننا نستعظم الأحداث العظام فى تاريخ بنى الانسان بمقدار ما فيها من فتوح الروح ، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان

وجائز أن يقع فى الدنيا طوفان أو زلزال فيتصل به من أحداث الزحوف والفتوح ما يبدل فى التاريخ ، ويبتعث دوافع الشعوب

أما غير الجائز فهو أن تنفتح للانسان آفاق جديدة من عالم الضمير بغير عظمة روحية يوحيها الايمان ، وبغير رسالة باطنية تسبق هذه الظواهر التى تهول الأنظار

ولقد فتح الاسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح فى كل قلب من قلوب اتباعه عالما مغلقا تحيط به الظلمات ، فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها فان الأرض لا تزيد بغلبة سيد على سيد أو بامتداد التخوم وراء التخوم ، ولكنه زاد الانسان أطيب زيادة يدركها فى هذه الحياة ، فارتفع به مرتبة فوق طباق الحيوان السائم ، ودنا به مرتبة الى الله

يدين بهذه الحقيقة كل من يدين بحقيقة فى عالم الضمير . فمن أنكرها فانما ينكر تقدم الانسان كثيرا أو قليلا فى هذه الطريق

عقد عالم أوربى (١) مقارنة بين محمد وبوذا والمسيح فسأل : « أليس

---

(١) الدكتور ماركس دودز فى كتابه « محمد وبوذا والمسيح »
«Mohammed, Buddha and Christ» by Dr. Marcus Dodds

محمد نبيا على وجه من الوجوه ؟ » ثم أجاب قائلا : « انه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء : فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله ، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة ، وانه لخليق فى هذه الفضيلة أن يسامى أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بنى اسرائيل ، لأنه جازف بحياته فى سبيل الحق ، وصبر على الايذاء يوما بعد يوم عدة سنين ، وقابل النفى والحرمان والضغينة ، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة ، فصابر على الجملة قصارى ما يصبر عليه انسان دون الموت الذى نجا منه بالهجرة ، ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته غير قادر على اسكاته وعد ولا وعيد ولا اغراء ... ... وربما اهتدى الى التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان ، الا أن أحدا آخر غير محمد لم يقم فى العالم مثل ما أقام من ايمان بالوحدانية دائم مكين ، وما أتيح له ذلك الا لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الايمان . فاذا سأل سائل : ما الذى دفع بمحمد الى اقناع غيره حيث رضى الموحدون بعبادة العزلة ؟ فلا مناص لنا أن نسلم انه هو العمق والقوة فى ايمانه بصدق ما دعا اليه »

والحقيقة التى يراها المنصف مسلما كان أو غير مسلم ، هى هذه :

هى أن فتوح محمد فتوح ايمان ، وأن قوة محمد قوة ايمان ، وأنه ما من سمة لعمله أوضح من هذه السمة ، ولا من تعليل لها أصدق من هذا التعليل . لقد جاء الاغراء الذى أشار اليه العالم الأوربى وهو داع مهدد فى سربه ، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته ، فما حفل بالاغراء وهو بعيد من مقصده ولا حفل به وهو واصل اليه

جاءه سيد قومه عتبة بن ربيعة وهو فى مبدأ أمره فقال له واعدا ملاطفا بعد أن أعياهم تخويفه متوعدين : « يا ابن أخى ، انك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبا ونسبا ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . فقال عليه السلام : قل يا أبا الوليد . فقال : يا ابن أخى ! ان كنت تريد

بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنـا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينـا ، وان كان الذى يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه » . فما زاد عليه السلام على أن أجابه بآيات من القرآن الكريم ثم تركه يعود كما أتى

ثم أدرك النبى غاية ما سعى اليه فلم يدخل له المال ولا المتاع فى حساب ، ولم يكن النعيم المستطاع أفعل فى اغرائه من النعيم الموعود ، بل كان النعيم المستطاع فوق ما حلم به عتبة بن ربيعة ، وكان النبى أزهد فيه من زهده فى النعيم الموعود فلم كل هذا ؟ لم هذا الجهاد ؟ ولم هذا العناء ؟ ولم هذا الصبر ان لم يكن فى سبيل الايمان ؟ وأى نبى له من الايمان شفاعة أكبر من هذه الشفاعة ورسالة أكبر من هذه الرسالة ؟ وأى انسان يعرف تعظيم الأنبياء ان لم تظفر نبوة محمد عنده بالتعظيم ؟

التاريخ هو فيصل التفرقة بين محمد وشانئيه : حكمه أنفذ من حكم الشانئين والأصدقاء ، وأنفذ من حكم المشركين والموحدين ، وأنفذ من حكم المتدينين والملحدين ... لأنه حكم الله

وقد حكم له أنه كان فى نفســه قدوة المهذبين ، وكان فى عمـله أعظم الرجال أثرا فى الدنيا ، وكان فى عقيدته مؤمنا يبعث الايمان ، وصاحب دين يبقى ما بقيت فى الأرض أديان

وسيطلع فى الأفق هلال ويغيب هلال ، وسيذهب فى الليل قمر ويعود قمر ، وتتعاقب هذه الشهور التى كأنها جعلت لتاريخ ما بين الصدور ، لأن الناس لا يؤرخون بها مواسم الزرع ولا مواعد الاشغال ولا أدوار الدواوين والحكومات ، ولا ينتظرونها الا هداية مع الظلام وسكينة مع الليل : أشبه شىء بهداية العقيدة فى غياهب الضمير

يوم الغار

ستطلع الأقمار بعد الأقمار ، وتقبل السنة القمرية بعد السنة القمرية ،

وكأنها تقبل بمعلم من معالم السماء يومىء الى بقعة من الأرض هى غار الهجرة . أو يومىء الى يوم لمحمد هو أجمل أيام محمد ، لأنه أدل الأيام على رسالته ، وأخلصها لعقيدته ورجاء سريرته ، وهو يوم التقويم الذى اختاره المسلمون بالهام لا يعلوه تفكير ولا تعليم

لم كان يوم الهجرة ابتداء التاريخ فى الاسلام ، ولم يكن يوم الدعوة ؟ ولم لم يكن يوم بدر أو يوم ولادة النبى أو يوم حجة الوداع يوم ابتداء التاريخ .. كل يوم من هذه الأيام كان فى ظاهر الرأى وعاجل النظر أولى بالتاريخ والتمجيد من يوم الفرار بالنفس والعقيدة فى جنح الظلام

فالرجل الذى اختار يوم الهجرة بدءا لتاريخ الاسلام قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والايمان ومواقف الخلود من كل مؤرخ وكل مفكر يرى غير ما رآه

لأن العقائد انما تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب : كل انسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة . أما النفس التى تعتقد حقا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقا فهى النفس التى تؤمن فى الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء

وليس يوم أحق بالتاريخ اذن من اليوم الذى هجر فيه النبى بلده ... « اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم »

ليقل من قال أن التوقيت بما قبل الهجرة وما بعدها كان توقيتا معروفا على عهد النبى عليه السلام .. وليقل من قال أن دخول المدينة هو المقصود بالتاريخ من الهجرة ، وهو يوم عظيم .. ليقل من قال هذا أو ذاك ، فان تاريخ النصر فى القرآن ظاهر اذ هو « ثانى اثنين » فى الغار

وان ابن الخطاب لنبيل ملهم الفؤاد ــ سواء كان هو المقترح أو مجيب الاقتراح ــ حين نظر الى غار « ثور » ولم ينظر فى التاريخ الى نصر المدينة ولا الى نصر بدر ولا الى نصر أحد ولا الى نصر فارس ، ونظر الى تلك

« الجنود التى لم تروها » وقد نراها نحن الآن

يوم الدعوة لم يكن يوم الاسلام الأول ، لأن الدعوة كلمة يستطيعها كل انسان ويستطيع النكول عنها بعد قليل أو كثير

ويوم ميلاد النبى لم يكن يوم الاسلام الأول ، لأن ميلاد محمد لم يكن معجزة الاسلام كما كان ميلاد عيسى معجزة المسيحية ، ولأن محمدا بشر مثلنا فى مولده ولكنه سيد الرسل يوم دعا ويوم نجا بالدعوة الى حيث تنجو وحيث تسود ، وحيث يكون امتحانها الأول فى قلب صاحبها وقلب صاحبه الصديق ، وهما اثنان فى غار

كذلك تؤرخ العقائد والأديان : بالشدة تاريخها وليس بالغنائم والفتوح وانها لشىء فى القلوب فلنعرفها اذن حين لا تكون الا فى القلوب ، وحين يكون كل شىء ظاهر كأنه ينكرها وينفى وجودها وهى يومئذ من الوجود فى الصميم

يوم عقيدة ورجاء

ان يوم الغار ليوم له عبرته وعزاؤه فى كل يوم ولا سيما أيام القلق والحيرة والانتظار

انه يوم عقيدة فهو يوم رجاء ويوم نظر الى المستقبل الذى ينظر اليه من ليس له رضى فى حاضر عهده . وحاضر العالم فى عهده لا يرضى أحدا من محبيه .. حيثما غلبت الحيرة والقلق فى العالم فهنالك أمر واحد كن منه على أتم اليقين . كن على يقين أن العالم يبحث عن عقيدة روحية !

لأنه يضيق بالحاضر وينظر الى المستقبل ، وكل مستقبل فلا محل له من جوانح الصدور ان لم يكن موضع رجاء ومرجع ايمان ، وغاية سعى يستحق الكفاح .. وفى التاريخ الانسانى كله لم تقم قط حركة عظيمة على الماضى الذى لا مستقبل بعده ، انما تقوم الحركات العظمى جميعا على الرجاء فى غد محجوب ، أو على شىء يمكن أن يتحقق فى حياة الانسان ، وشىء يبقى أبدا موضع الرجاء البعيد

لقد كان على فتى يستقبل الدنيا وكان أبو بكر كهلا يدبر عنها يوم

أعانا محمدا فى يوم حراء

ولكنهما كانا معا على أبواب غد واحد ورجاء واحد ، يستوى فيه الفتى والكهل والشيخ الدالف الى قبره ، لأنه رجاء الايمان لا رجاء العيان

المستقبل للايمان

ماذا فتح الاسلام لأبى بكر من عوالم الحياة ؟ هل رجع به الى الماضى أو أقبل به على المستقبل ؟ هل مشى به فى حركة الى أمام أو قفل به فى رجعة الى وراء ؟ الحق أن الاسلام مثل المستقبل للشيخوخة كما مثل المستقبل للشباب ، وانفصل من حالة لا تبقى ليتصل بحالة يرجى لها البقاء ، وكان يفتح أمام أبى بكر — وليس أمام على وحده — باب الحياة الصالحة فى الدنيا وباب الحياة الخالدة فى الآخرة ... وهكذا كل عقيدة فما هى بعقيدة على أى معنى من معانى الاعتقاد ان كان خيرها كله شيئا يناله الانسان فى أيامه ... فلا مناص فى العقيدة من خير وراء أيام الفناء

ليذكر هذا جميعه من يتحفزون للنهوض ، ومن يبتغون الحركة ، ويقودون الخطوات المقبلة فى عجلة أو أناة

لن تتحرك أمة الا اذا فتحت أمامها باب المستقبل ، ولن تلتفت الى الماضى الا اذا كان فيه التقاء بالمستقبل ، ولن تعيره الحياة الا وهو مبعوث من جديد فى صورة الخلق الجديد

ليذكر هذا من يحارون فى أمر العالم اليوم وهو غارق فى دمائه ، ضائق بحاضره ، معرض عن ماضيه .. فيم يحار ؟

فى طلب المستقبل ، فى طلب العقيدة ، فى طلب المسوغ للوجود ، لأن الوجود وحده لايكفى الانسان الا أن يكون على طبقة مع الحيوان

فالايمان للمستقبل .. وعسى أن يكون المستقبل للايمان

وعسى أن يجد العالم عزاء باقيا من يوم الغار ومن صاحب يوم « الغار »

فهرس

صفحة

طبع
بمطابع دار الهلال